

الخلفية العلمية الحديثية لإقليم خوارزم

بقلم: د. قاسم علي سعد

أستاذ الحديث وعلومه المشارك جامعة الشارقة

المستخلص

اعتنى المحدثون كلَّ اعتناء بتواريخ البلدان، التي تُعدّ سجلاً للحركة العلمية والحديثية، وقد ضاع الكثير من تلك التواريخ، وبضياعتها تعرّس التعرّف على بلادها وعلماؤها وأهل الحديث بها، وخوارزم من تلك البلاد التي فُقدت تواريخها، مع كونها مجانبية لجادة الطرق فازداد أمرها غموضاً، ثم كان لاجتياح التتر لها محو لمعالمها ونعي لأهلها، لذا رأيت من المهم التعريف بهذا الإقليم، وبخلفيته الحديثية، حتى لا يُظنّ أنه مماثل للنواحي المجاورة، كخراسان وما وراء النهر.

وخوارزم واسعة الأرجاء، متعددة الأنحاء، ذات مدن كثيرة، وقرى وفيرة، ازدهرت بعلم الكلام والفقه والأدب ونحوها، ولم يكن لعلم الحديث فيها تلك السوق الرائجة، ساعد على ذلك انتشار مذهب الاعتزال فيها، ومن ثمّ لم تكن الرحلة إليها في الحديث كالرحلة إلى غيرها، لاسيما مع شدة برودتها، واكتناف الأعداء لها من عامة جهاتها.

وعمل كثير من سلاطينها وكبرائها على تشجيع الحركة العلمية فيها، بالاتصال بالعلم من جهة، وبالاعتناء بإقامة دور العلم، وكان لعلم الحديث نصيب من ذلك، لكنه غير كبير.

وحفلت خوارزم بأسر علمية اعتنى بعض أفرادها بعلم الحديث، كما اعتنى جماعة من أهل هذا الإقليم بالتوثيق والضبط، وهما من شعار أهل الحديث، وللخوارزميين في الانتساب طريقة تختلف عن طريقة المحدثين المشهورة، وكثر عندهم الانتساب إلى الأماكن والصناعات، وبالغوا في اختيار ألقاب علمائهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فإن الأقاليم الإسلامية انتشرت في أكثر جوانب المعمورة، وكان للحديث النبوي الشريف في معظمها مكانة مشهودة، لكن الإقبال على هذا العلم تختلف درجته من بلد إلى بلد، ومن صُقع إلى آخر، نظراً لاختلاف التوجهات الفكرية وتنوع الميول العلمية.

ولعلم الحديث في خوارزم أثر لا يُنكر، لكنه بلا شك أدنى بكثير مما كان عليه إقليم خراسان المجاور المشتهر بالحديث وعلم الأثر، وذلك لأن خوارزم غلبت جانب العقل على النقل، وكل بدعة تطمس من السنة بقدرها.

والمكتبة الإسلامية اليوم تفتقر إلى بحث يُظهر الخلفية الحديثية لهذا الإقليم، فضلاً عن الواجهة⁽¹⁾، بل إن تاريخ خوارزم نفسه بحاجة إلى من يُسلط الضوء عليه، لما يكتنفه من غموض، ولكثرة الخطأ في تعيين مواضعه، مع ندرة المتحدثين عنه والمؤلفين فيه باللغة العربية. ولا يمكن تلمس الجانب الحديثي إلا باستحضار ذاك التاريخ، وتواريخ البلدان هي من صميم الدراسات الحديثية، اعتنى بها المحدثون كل الاعتناء، ومعلوم أن بين علم الحديث وعلم التاريخ تواصلًا وتكاملاً.

ويسر الله تعالى لي عام 1429هـ / 2008م زيارة بعض نواحي إقليم خوارزم، تلك الواقعة في دولة تركمانستان، لاسيما قصبته الجرجانية (كركانج)، فحفزني ذلك للحديث عنه، وعن خلفيته العلمية الحديثية إلى أوان إخضاع التتار له، وأراني بذلك أمام موضوع لم يُطرق من قبل على حدّ

(1) وتتمثل الواجهة الحديثية في تسمية محدثي خوارزم والتعريف بهم وبيّناهم العلمي الحديثي، مع التحليل والتوثيق. وقد أفردت فيها بحثاً بعنوان: (محدثو ومتعاطو الحديث بخوارزم من الأهلين.. جمعاً ودراسة).

علمي، ولم تتوافر فيه المعلومات كما ينبغي.

أهم أسباب اختيار الموضوع

- (1) بيان التفاوت الحديثي بين إقليم خوارزم وغيره من الأقاليم الشرقية كخراسان، وأسبابه.
- (2) التعريف بإقليم خوارزم الذي اضطرب كلام الكثير من أهل العلم عند الحديث عنه.
- (3) إبراز نسبة النشاط الحديثي في ذلك الإقليم.
- (4) التنويه بالتواريخ الرجالية المختصة بهذا الإقليم.
- (5) إظهار طرائق الخوارزميين في الانتساب وغيره، مما يفسّر عدداً من الظواهر الواردة في كتب الرجال.
- (6) الإلماع إلى ما حلّ بهذا الإقليم من سحق على يد التتار، مُحيّت به المعالم، وأُبيد به التراث وحملته.

خطة البحث

نظمت هذا البحث بعد افتتاحيته حسب الخطة الآتية:

التمهيد: التعريف بخوارزم ودولها ومصيرها، ويشتمل على ثلاث نقاط:

- (1) التعريف بخوارزم.
- (2) دول إسلامية أخضعت لخوارزم.
- (3) مصير خوارزم.

الفصل الأول: الحركة العلمية الحديثية في خوارزم ومواطنها ومذاهب الخوارزميين وصفاتهم، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مواطن العلم والحديث في خوارزم، وتحتة ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مدن خوارزم ونواحيها.

المطلب الثاني: بلدات خوارزم وقراها وسوادها.

المطلب الثالث: المواضع والقلاع والمحالّ وما لم يتعين كونه قرية أو مدينة.

المبحث الثاني: الحركة العلمية والحديثية في خوارزم وتنشيط الحكام لها، وتحتة ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: علوم الخوارزميين والرحلة إليهم.

المطلب الثاني: صلة ملوك خوارزم وكبرائها بالحديث وغيره من العلوم.

المطلب الثالث: إقامة ملوك خوارزم وكبرائها لدور العلم وغيرها من المنشآت.

المبحث الثالث: مذاهب الخوارزميين وطبائعهم وأثر ذلك على النشاط الحديثي.
وتحتة مطلبان:

المطلب الأول: مذاهب الخوارزميين وأثرها في الحركة الحديثة.

المطلب الثاني: صفات أهل خوارزم وأثرها في الحركة الحديثة.

الفصل الثاني: تواريخ خوارزم وبيوتاتها العلمية واعتناء الخوارزميين بالتوثيق وطرائقهم
في الأنساب والألقاب، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تواريخ خوارزم الرجالية وبيوتاتها العلمية الحديثة، وتحتة ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تاريخ خوارزم لابن أرسلان.

المطلب الثاني: بقية تواريخ خوارزم.

المطلب الثالث: الأسر العلمية الحديثة بخوارزم.

المبحث الثاني: اهتمام الخوارزميين بالتوثيق والضبط وطرائقهم في الأنساب والألقاب، وتحتة
ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اهتمام الخوارزميين بالتوثيق والضبط.

المطلب الثاني: طريقة الانتساب عند الخوارزميين.

المطلب الثالث: مبالغة الخوارزميين في إطلاق الألقاب.

الخاتمة

فهرس المصادر والمراجع.

التمهيد

التعريف بخوارزم ودولها ومصيرها

يتضمن هذا التمهيد تحديد موقع خوارزم في الجغرافية التاريخية والحديثة، وذكر الأهم الدول الإسلامية التي أخضعت هذا الإقليم، ووصفاً لما حلّ به على يد التتار من تدمير للبنيان وإفناء للإنسان.

1) التعريف بخوارزم

خوارزم إقليم منقطع عن خراسان وعمّا وراء النهر⁽¹⁾، تحفّ به المفاوز من كل جهة، يقع على صفّتي نهر جيحون⁽²⁾ من جهته الشمالية، وأعماله واسعة، وقصّبه كركانج (الجزجانية). ولو أسقط اعتبار تلك المفاوز المحيطة لكان حدّ هذا الإقليم: من الشمال بحيرة خوارزم (بحر آرال) حيث يصبّ نهر جيحون، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الغرب بحر الخزر، ومن الجنوب إقليم خراسان. وكانت القبائل التركية تحيط به من عامة نواحيه⁽³⁾.

(1) لكن بعض الجغرافيين والمؤرخين عدّه من هذه، وعدّه البعض الآخر من تلك، والراجح ما أثبتّه. وكانت خوارزم في بعض العهود تتبع إقليم خراسان إدارياً، لكن في الدولة الخوارزمية صارت خراسان وغيرها تابعة لها. الدولة الخوارزمية والمغول: غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية لحافظ حمدي 29.

(2) يسمى نهر جيحون اليوم (آموداريا)، وداريا هو النهر بلغة أهل تلك البلاد، فمعنى الاسم: نهر أمل، أي أمل جيحون لا أمل طبرستان.

(3) صورة الأرض لابن حوقل 395، ومعجم البلدان لياقوت الحموي (خوارزم) 452/2، ومقدمة ابن خلدون 80/1. وصور الأقمار الاصطناعية تُظهر طبيعة إقليم خوارزم، وأنه محاط بالمفاوز من كل جهة. وقد أغرب ياقوت في معجم البلدان في قوله تحت مادة (مَنْقُشْلَاغ) 249/5: "قلعة حصينة في آخر حدود خوارزم، وهي بين خوارزم وسقسين ونواحي الروس، قرب البحر الذي يصبّ فيه جيحون، وهو بحر طبرستان". وذلك لأن جيحون لا يصبّ في بحر طبرستان الذي هو بحر الخزر، المعروف اليوم ببحر قزوين، هذا من جهة. ولأن إقليم خوارزم جغرافياً لا يصل إلى تلك الناحية الموصوفة، بل بينه وبينها مفاوز واسعة، وتوسّع الدولة الخوارزمية إلى =

فإقليم خُوارزم يقع في الجهة الجنوبية من بحيرة خُوارزم والجنوبية الشرقية، ويمتد إلى جهة آمل جَيْحُون الواقعة غربي النهر، وآمل هذه من خُراسان لا من خُوارزم، وكان بها أعظم المعابر إلى بلاد ما وراء النهر. وأول حدّ خُوارزم مما يلي آمل، أي غربها المتشامل: بلدة الطّاهرية⁽¹⁾. وفي الجغرافية الحديثة يقع هذا الإقليم في شمالي دولتي تُركمانستان وأوزباكستان، يقتسمه هذان البلدان.

وبخصوص ضبط الاسم، فخُوارزم كما قال ياقوت: «أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلصة ليست بألف صحيحة، هكذا يتلفظون به»⁽²⁾.

وقد حاول المسلمون غير مرة فتح إقليم خُوارزم، لكنهم لم يتمكنوا منه لحصانته⁽³⁾، إلى أن تم افتتاحه صلحاً على يد قُتيبة بن مسلم الباهلي أمير خُراسان - زمن عبد الملك بن مروان، من جهة أمير العراقيين الحجاج بن يوسف الثقفي -، وذلك سنة 93 هـ⁽⁴⁾.

2) دول إسلامية أخضعت خُوارزم

كانت خُوارزم بعد فتحها من قِبَل الدولة الأموية تابعة بطبيعة الحال لهذه الدولة، ومن بعدها للدولة العباسية.

ولما قامت في بلاد المشرق دول مستقلة، أخضع بعضها خُوارزم، ومن أهم تلك الدول:

= تلك الجهة في بعض العهود لا يعني أنها صارت من جغرافية هذا الإقليم. وَمَنْقُشْلَاغ أو مَنْقُشْلَاق تعرف اليوم بـ (مانغيسلو)، وتقع غربي خُوارزم لجهة الشّمال، قرب بحر قزوين، وذلك غربي دولة كازاخستان.

(1) وكان يُسلك إلى خُوارزم من جهة آمل بالسفن في نهر جَيْحُون، أو بالطريق البرّي.

(2) معجم البلدان (خُوارزم) 2/ 452. وينظر المُعَرَّب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجَوَالِقي 280.

(3) الثقات لابن حبان 2/ 253، وتاريخ الإسلام للذهبي 2/ 182، 585، 781. ومما يدلّ على حصانة خُوارزم قول

ابن أُرْسْلان في تاريخ خُوارزم (ورقات منه) 95 ب: «ولها رِبَاطات حصينة جداً على الجبال».

(4) الأنساب لأبي سعد السَّمْعاني 5/ 213، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتته

العيان لابن خُلْكان 4/ 86-87، وتاريخ الإسلام 2/ 1040، 1157.

الدولة السّامانية⁽¹⁾: وحاضرتها بُخارى، وانطلقت من بلاد ما وراء النهر إلى خوارزم وخراسان وطبرستان والجلال وسجستان.

الدولة الغزنوية: وحاضرتها غزنة، وضمت هذه الدولة بلاد ما وراء النهر وخراسان وخوارزم وطبرستان والجلال وفارس وسجستان والسند والهند. وكانت من محاسن الدول، وسلاطينها من مفاخر السلاطين، إذ ارتفع في أيامهم علم الجهاد، ونشروا الإسلام، وأظهروا السنة، وقصّوا على الكثير من الباطنية.

وقد قال الذهبي عند كلامه عن حوادث سنة 407هـ: «وفيها افتتح محمود بن سُبُكْتِكِين خوارزم، ونقل أهلها إلى الهند»⁽²⁾، وكان ذلك أواخر أيام حكم الأسرة المأمونية على خوارزم، وكانت هذه الأسرة تابعة للسّامانيين، فلما ضعفوا استقلت عنهم أكثر من عشرين سنة، ثم خضعت للغزنويين، إلى أن أزال حكمهم السلطان محمود، وعهد بحكم خوارزم إلى قائده ألتون تاش الذي لُقّب بخوارزم شاه، وخلفه عليها أولاده⁽³⁾.

(1) كان السّامانيون أول أمرهم عمّالاً للعباسيين، ففي سنة 309هـ توجّه الرّحالة ابن فضلان إلى خوارزم، وكانت إحدى المحطات في رحلته الشهيرة، وكان أمير خوارزم حينذاك محمد بن عراق خوارزم شاه، وهو يتبع والي خراسان من قبل العباسيين نصر بن أحمد السّاماني، رسالة ابن فضلان 77، 80. وفي سنة 356هـ كان والي خوارزم أبا سعيد أحمد بن محمد بن عراق خوارزم شاه، ولعله ابن الذي قبله، سير أعلام النبلاء 16/196. وأجداد عراق المذكور كانوا يحكمون خوارزم قبل دخول الإسلام إليها، ثم أقروهم المسلمون، وكان آخرهم أبا عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن عراق بن منصور بن عبدالله، الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الرّيحان البيروني 35-36. وكانت خوارزم قبل السّامانيين من أعمال الدولة الصفّارية، وقبل ذلك كانت تابعة للدولة الطاهرية، والدولتان المذكورتان لم تستقلا عن الدولة العباسية. ومن ولي خوارزم للدولة الصفّارية محمد بن عمرو الخوارزمي، إذ كان عامل عمرو بن الليث الصفّار على خوارزم، وكان سنة 283هـ على رأس عمله، تاريخ سجستان لمؤلف مجهول 206.

(2) تاريخ الإسلام 18/9.

(3) السلطان جلال الدين خوارزم شاه في ميزان التاريخ لمحمد دبیر سياقي 19، والعرب والإسلام في أوزبكستان لبوريوي أحمدوف وزاهد الله منوروف 142.

الدولة السَلْجُوقِيَّة: وحاضرتها مَرَوْ بعد الرِّيِّ، وفاقت هذه الدولة في عظمتها الدولة العَزْنَويَّة، إذ صارت أوسع رُقعة، وأقوى سلطاناً، وأكثر ازدهاراً، وامتدت من حدود الصين شرقاً إلى أقاصي الشام غرباً، ومن بلاد آسيا الصغرى شمالاً إلى جنوب بلاد اليمن، وأدى إليهم إمبراطور الروم الجزية.

وعملت هذه الدولة على القضاء على حكم البُويهيين والعُبَيْدِيِّين، وحاربت الإسماعيلية، ثم أدركت هذه الدولة سنة الله في مداولة الأيام بين الناس، فقام في وجهها جهات متعددة، منها: الدولة الخُوارزمية.

وقد تمكن السلطان طُغرُلْبَك السَلْجُوقي سنة 431 هـ أو بعدها، من انتزاع خُوارزم من السلطان مسعود بن محمود بن سُبُكْتِكِين العَزْنَوي⁽¹⁾، ثم استتاب عليها أبا نصر محمد بن منصور الكُنْدَرِي المعروف بعميد الملك⁽²⁾.

ومن تولى خُوارزم للسَّلاجقة أيضاً عز الملك أحمد بن نظام الملك أبي علي الطُّوسي⁽³⁾. ثم ولَّى السلطان بَرْكِيَارُوق السَلْجُوقي قطب الدين محمد بن أُنُوشْتِكِين على خُوارزم، ولُقِّب بخُوارزم شاه⁽⁴⁾، ولما تملك السلطان السَلْجُوقي الشهير سَنَجَر أَقرَّ محمداً إلى أن مات، فولَّى بعده ابنه أَتِسَر⁽⁵⁾، لكن أَتِسَر خرج بعدُ على السلطان سَنَجَر⁽⁶⁾.

الدولة الخُوارزمية: وحاضرتها كُرْكَانْج (الجُرْجانية)، وامتدت هذه الدولة من بلاد ما وراء النهر وثر كستان شرقاً إلى حدود الفرات غرباً، ومن باب الأبواب وتَقْلِس وبحر خُوارزم (بحر

(1) تاريخ الإسلام 60 / 10.

(2) المصدر السابق 85 / 10.

(3) المصدر السابق 479 / 10.

(4) المصدر السابق 485 / 10. وخُوارزم شاه هو لقب حكام إقليم خُوارزم، وأما في القديم قبل الفتح الإسلامي فكانوا يلقَّبون: (خُسرو خُوارزم)، المسالك والممالك لابن خُرْداذبَه 40، والبلدان لابن الفقيه الهَمْداني 649.

(5) تاريخ الإسلام 485 / 10.

(6) وَفَيَات الأعيان 428 / 2، وتاريخ الإسلام 532 / 10.

آرال) شَمالاً إلى الخليج العربي وبحر العرب وحدود الهند جنوباً. وكان لها جهاد واسع مشهود، ومحاربة ضارية للإسماعيلية الباطنية.

وكان استقلال الخوارزميين بحكم خوارزم عن السلاجقة سنة 543 هـ. وأول من استقل منهم خوارزم شاه أتبسز بن محمد بن أنوشتيكين، فكان بذلك مؤسس الدولة الخوارزمية وأول سلاطينها، وكان يُوصف بالعدل، وتملك بعده ابنه إيل أرسلان⁽¹⁾.

ثم أُيِّدت هذه الدولة على يد التتار سنة 628 هـ، وآخر سلاطينها خوارزم شاه جلال الدين منكبرتي بن قطب الدين وعلاء الدين محمد بن علاء الدين تكش بن إيل أرسلان، وكان التتار قد تتبعوا والده تتبعاً واسعاً حتى يئسوا من اللحاق به.

وبعد مدة من الزمان أسلم هؤلاء التتار، فعاد الملك في خوارزم وغيرها إلى أهل الإسلام، وسلاطينهم يُعرفون بالخانات، وقد كثر الشقاق بينهم فانقسمت تلك البلاد الشرقية إلى دول متعددة سميت بالخانيات⁽²⁾.

(3) مصير خوارزم

مضى على بلاد خوارزم زمان كانت فيه أهلة عامرة زاهرة، حتى اجتاحتها التتار، فأهلكوا فيها الحرث والنسل، وجعلوها خراباً ياباً، فدمروا عمرانها، وأتلفوا تراثها، وأعدموا علماءها، وقتلوا أهلها، واستحيوا من تبقى من نسائها، وصيروها أثراً بعد عين، وجعلوها كأن لم تكن.

وكان ياقوت الحموي ممن عاين هذه الفاجعة المروعة، وشاهد شدائدتها، وعایش وقائعها، إذ قصد خوارزم للتجارة فصادفه وهو بها سنة 616 هـ خروج التتار، ففر أمامهم مقاسياً الشدائد، ومواجهاً المهالك، ولما بلغ إلى الموصل كتب إلى الوزير في حلب القاضي جمال الدين القفطي رسالة بليغة يصف فيها حاله وحال تلك البلاد المشرقية التي عدا عليها التتار، ومن جملة قوله فيها: «إلى أن حَدَث بخراسان ما حَدَث من الخراب، والويل المبير والتبّاب... فكم كان فيها من

(1) تاريخ الإسلام 12/ 25-26.

(2) الدول الإسلامية لستانلي بول 2/ 523، 606-607. وينظر العرب والإسلام في أوزبكستان 203-204،

213-214، 220.

حَبْر رَاقَتْ حَبْرُهُ، وَمِنْ إِمَامٍ تَوَجَّتْ جِبَاهُ الْإِسْلَامَ سَيْرُهُ، آثَارُ عُلُومِهِمْ عَلَى صَفْحَاتِ الدَّهْرِ مَكْتُوبَةٌ، وَفَضَائِلُهُمْ فِي مُحَاسِنِ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ مُحْسُوبَةٌ... أَطْفَالُهُمْ رِجَالٌ، وَشَبَابُهُمْ أَبْطَالٌ، وَمَشَايِجُهُمْ أَبْدَالٌ، شَوَاهِدُ مَنَاقِبِهِمْ بَاهِرَةٌ، وَدَلَائِلُ مَجْدِهِمْ ظَاهِرَةٌ... فَجَاسَ خِلَالِ تِلْكَ الدِّيَارِ أَهْلُ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، وَتَحَكَّمَ فِي تِلْكَ الْأَبْشَارِ أُولُو الزَّيْغِ وَالْعِنَادِ، فَأَصْبَحَتْ تِلْكَ الْقُصُورُ كَالْمَمْحُورِ مِنَ السُّطُورِ، وَأَصَتْ تِلْكَ الْأَوْطَانُ مَأْوَى الْأَصْدَاءِ وَالْغُرَبَانِ⁽¹⁾.

وقد نازل التتار خوارزم أواخر سنة 617 هـ، وحاصروها عدة أشهر، حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها وأخذها عنوة، بعد حروب ضارية ووقائع متتالية، وذلك أوائل سنة 618 هـ⁽²⁾، قال عز الدين بن الأثير: «أما الطائفة من الجيش التي سبّرها جنكزخان إلى خوارزم، فإنها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلد، فساروا حتى وصلوا إلى خوارزم وفيها عسكر كبير، وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة، فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس، ودام الحصر لهم خمسة أشهر، فقتل من الفريقين خلق كثير، إلا أن القتلى من التتر كانوا أكثر، لأن المسلمين كان يحميهم السور.

فأرسل التتر إلى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد، فأمدّهم بخلق كثير، فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفاً متتابعاً، فملكوا طرفاً منه، فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم... وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليهم، فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه، وقتلوا كل من فيه، ونهبوا كل ما فيه، ثم إنهم فتحوا السّكر الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء، فغرق البلد جميعه، وهدمت الأبنية، وبقي موضعه ماء، ولم يسلم من أهله أحد البتّة... فمن اختفى من التتر غرقه الماء أو قتله الهدم، فأصبحت خراباً ياباً⁽³⁾.

وقد تحدّث ياقوت عن جرجانية خوارزم قصبة تلك البلاد، فقارن بين حالها قبل التتار وبعدهم فقال: «وكنّت رأيّتها في سنة 616 قبل استيلاء التتر عليها وتخريبهم إياها، فلا أعلم أني رأيّت أعظم منها مدينة، ولا أكثر أموالاً وأحسن أحوالاً، فاستحال ذلك كله بتخريب التتر إياها،

(1) إنباه الرواة على أنباه النّحاة 4/ 93-95.

(2) تاريخ الإسلام 13/ 296، 302.

(3) الكامل في التاريخ 10/ 360-361.

حتى لم يبق فيها بلغني إلا معالمها، وقتلوا جميع من كان بها»⁽¹⁾.
وقال أيضاً: «وأما الآن فقد بلغني أن التتر...وردوها سنة 618، وخرّبوها، وقتلوا أهلها، وتركوها تلوّاً، وما أظن أنه كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في كثرة الخير، وكبر المدينة، وسعة الأهل، والقرب من الخير، وملازمة أسباب الشرائع والدين، فإننا لله وإنا إليه راجعون»⁽²⁾.
فقد دمر هؤلاء الأشرار البلد وأغرقوه، وأعملوا السيف فيمن بقي من أهله، فلم يسلم منهم إلا قلة استطاعت الفرار قبل مجيئهم، فقتل في البلد جماعات كبيرة من العلماء، أهليين وغرباء، ومحدثين وفقهاء وأدباء، وخربت المساجد والمدارس والمكتبات⁽³⁾، حتى صارت تلك الديار العامرة حصيداً كأن لم تغن بالأمس.
«وهذا دأب الدنيا لا يصفو أبداً فرحها من ترح، وقد تخلّص مصائبها من شائبة الفرح»⁽⁴⁾،
فالعاقل من اذكر، والسعيد من اعتبر، وكل شيء عند الله بمقدار.

(1) معجم البلدان (الجزء 2) 143.

(2) المصدر السابق (خوارزم) 455/2.

(3) المختصر في أخبار البشر للملك المؤيد أبي الفداء 127/3.

(4) مقتبس من الكامل في التاريخ 292/10.

الفصل الأول: الحركة العلمية الحديثية في خوارزم ومواطنها ومذاهب الخوارزميين وصفاتهم

حَرَصْتُ في هذا الفصل الأول على التعريف بمدن خوارزم وبلداتها وقراها ومحالها، كونها مواطن العلم والحديث، ثم تعرضت لذكر علوم الخوارزميين، ومرتبة علم الحديث بينها والرحلة فيه، ثم تحدثت عن صلة ملوك خوارزم وكبرائها بالحديث وغيره من العلوم، وإقامتهم للمدارس والمكتبات وغيرها من المنشآت ذات الصلة، وختمت الفصل بالكلام عن مذاهب الخوارزميين وصفاتهم مع بيان أثر ذلك على الحركة الحديثية.

المبحث الأول

مواطن العلم والحديث في خوارزم

إقليم خوارزم واسع الأفق، يشتمل على مدن كثيرة، وقرى وفيرة، وأقوم هنا بتسمية ما وقفت عليه من تلك المدن والبلدات والقرى، مع ضبطها والتعريف الموجز بها إن تيسر الأمر، وأكثر علماء خوارزم المذكورين في كتب التراجم يتتسبون إلى تلك الأماكن أو بعضها، ومنهم جماعات من أهل الحديث.

المطلب الأول: مدن خوارزم ونواحيها

تشتمل خوارزم على نواح متعددة، ومدن كثيرة، قال البشاري المقدسي: «وهي كورة جليلة واسعة، كثيرة المدن، ممتدة العمارة»⁽¹⁾. وهذا تعداد لما وقفت عليه من ذلك مقترناً بالتعريف الوجيز:

كُرْكانج: اسم لَقْصبة إقليم خوارزم، ومدينته العظمى، وعُربت إلى الجُرْجانية، وكانت مدينة عظيمة على الجانب الغربي من نهر جِيحون، لها أربعة أبواب، وتسمى اليوم (كُونيركانج)، أي

(1) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم 284.

كُرْكَانْج القديمة⁽¹⁾، وتقع ضمن ولاية داشوغُز بتركمانستان⁽²⁾، وأعمالها واسعة، وبانتهاء حدّها الغربي تنتهي حدود خوارزم من تلك الناحية.

وكانت كُرْكَانْج تسمّى باسم الإقليم، ومن الأدلة عليه قول ابن بطّوطة: «وصلنا إلى خوارزم، وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها... ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم... وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكُبرى»⁽³⁾.

كُرْكَانْج الصغرى: مدينة في الجانب الغربي من جِيْحُون، قرية من كُرْكَانْج الكبرى، قال فيها ياقوت: «وما أظنهما إلا خربتاً معاً في وقت التتر، في سنة 618»⁽⁴⁾.

كاث: ولعلها كاث درخاش، كما سُميت بشَهْرَسْتان⁽⁵⁾، مدينة شرقي نهر جِيْحُون، وكانت قَصَبَة خوارزم القديمة، فخر بها النهر، فاتخذ أهلها كُرْكَانْج قاعدة لهم⁽⁶⁾، وكاث تقع قبل كُرْكَانْج من جهة أعلى النهر⁽⁷⁾.

(1) المصدر السابق 289، والأنساب 82/11، ومعجم البلدان (الجرجانية) 2/142-143، (خوارزم) 2/452، (كُرْكَانْج) 4/513، والمُشْتَرَك وضِعاً والمُفْتَرَق صُقْعاً لياقوت 370-371، وخوارزم الحضارة المنسيّة لمنطقة ما بين بحري قَزْوِين وأرال لأحمد بروخازاكا 20.

(2) زرت هذه الولاية، لا سيما كُونِيرْكَانْج، وشاهدت في الأخيرة آثاراً عدة، أرفعها منارة الأمير قُطْلُوْدْمُور والي تلك الناحية من قبل الخان المغولي محمد أوزبك، فهي من الآثار المغولية الإسلامية.

(3) رحلة ابن بطّوطة (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار 359-360). ورأيت أنا تلك الزاوية في كُونِيرْكَانْج. وينظر تكملة الإكمال لابن نُقْطَة 2/63.

(4) معجم البلدان (كُرْكَانْج) 4/513. وينظر أحسن التقاسيم 287.

(5) أحسن التقاسيم 287. وشَهْرَسْتان اسم لعدة مدن وبلدات في المشرق، ومعناها عندهم: مدينة الناحية، ومنها شَهْرَسْتان خُراسان، وهي بليدة قرب نَسَا، بين خوارزم ونيسابور، منها المتكلم المشهور صاحب كتاب الملل والنحل. الأنساب 8/183، ومعجم البلدان (شَهْرَسْتان) 3/427-428.

(6) صورة الأرض 395، وأحسن التقاسيم 49، 286، 292، ومعجم البلدان (كاث) 4/484، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري 2/78. وينظر صُبْح الأعشى 4/454.

(7) معجم البلدان (جِيْحُون) 2/228.

ويبدو أن مدينة كاث هي منصورة⁽¹⁾، التي كانت تسمى قديماً: فيل⁽²⁾، وكل ما ذكر في أوصاف كاث وُصفت به منصورة⁽³⁾، وكانت منصورة كبيرة جداً⁽⁴⁾. وكان يُطلق عليها قبل الجرجانية اسم الإقليم⁽⁵⁾.

خيوه: بفتح أوله وقد يكسر، وتسمى أيضاً خيوق، مدينة وحصن غربي النهر، قال ياقوت: «وأهل خوارزم يقولون: خيوه، وينسبون إليه الخيوق»⁽⁶⁾. وتسمى اليوم أيضاً (خيوه) بالكسر، وتقع في دولة أوزباكستان على الحدود مع تركمانستان، وذلك غربي مدينة أوركنج (ومعناها: كركانج الجديدة) في أوزباكستان، ضمن ما يُسمى اليوم بولاية خوارزم، وبعد اجتياح التتار بمدة من الزمن صارت خيوه حاضرة تلك الديار، وكانت تسمى بخانية خيوه⁽⁷⁾.
دَرغان: مدينة على شطّ جيحون الغربي، أكبر مدن تلك الناحية بعد كركانج (الجرجانية)،

(1) قال ابن أَرسلان الخوارزمي في تاريخ خوارزم (ورقات منه) 95ب-196أ: «وكانت مدينة خوارزم التي حطّمها جيحون اسمها منصورة، قرأت بمرو في كتاب أشكال الأقاليم، فذكر خوارزم في جملة ما وراء النهر، قال: وإنما ذكرتها لأن مدينتها في جانب ما وراء النهر، ومنصورة قيل إنها بقيت إلى أن حطّمت ثلاثة آلاف سنة، سمعت هذا من عدة مشايخ... وكان بها دار السلطنة».

(2) معجم البلدان (فيل) 4/ 325. ونقل ياقوت في المصدر السابق (خوارزم) 2/ 454 عن أبي الرّيحان البيروني في كتابه أخبار خوارزم أن خوارزم كانت تدعى قديماً بفيل، وقد سبق إلى هذا ابن خردادبّه في المسالك والممالك 33. وينظر العرب والإسلام في أوزبكستان 134، 137-138.

(3) معجم البلدان (الجرجانية) 2/ 143، (فيل) 4/ 325، (المنصورة) 5/ 245، والمشتري 405، ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر 223. وينظر: طبقات الشافعية الكبرى 7/ 290-291، والقاموس المحيط (نصر) 483، والدّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر 1/ 532.

(4) ينظر ما سيأتي إن شاء الله تعالى ص 20.

(5) رسالة ابن فضلان 81.

(6) معجم البلدان (خيوق) 2/ 474.

(7) خوارزم الحضارة المنسية 19، 21، وخيوه لفيتالي ناؤومكين 10، والعرب والإسلام في أوزبكستان 349، 353-354.

وهي أول حدود خوارزم لمن سلكها من طريق مَرُو إلى الشَّمال⁽¹⁾، وما زالت بهذا الاسم، وهي في دولة تركمانستان قرب الحدود مع أوزباكستان.

الطَّاهريّة: ناحية ومدينة غربي نهر جَيحُون، على طريق السالك من آمُل جَيحُون إلى خوارزم، وهي أول عمل خوارزم من تلك الجهة⁽²⁾، وعن اسمها يقول ياقوت: «منسوبة -فيا أحسب- إلى طاهر بن الحسين»⁽³⁾.

درغاش: وتنطق أيضاً (درغاز) و(درخاش)، مدينة على شط جَيحُون الشرقي، مقابل كُرْكانج (الجُرْجانية) التي على الجانب الغربي، وكلاهما كان يُكوّن القَصْبة⁽⁴⁾.

هَزَاراسب: ينطق الحرف الأخير بالباء وبالفاء، مدينة وقلعة حصينة، تقع غربي جَيحُون، ويحيط بها الماء من عامة جهاتها⁽⁵⁾، وما زالت بهذا الاسم، وتقع في دولة أوزباكستان عند حدودها مع تركمانستان، وذلك شرقي خيوه.

كُرْدَر: مدينة وناحية شرقي النهر في شماليه، حصينة جداً⁽⁶⁾، وقال ياقوت: «لهم لسان ليس خوارزمياً ولا تركياً، وفي ناحيتهم عدة قرى»⁽⁷⁾.

أَرْدُخْشَمِيْن: وتنطق أيضاً: (أَرْخْشَمِيْن)، ولعلها أيضاً: (خُشْمِيْن)، مدينة غربي النهر، من

(1) أحسن التقاسيم 49، 287، 289، 292، ومعجم البلدان (دُرْغان) 2/ 514، (جَيحُون) 2/ 228.

(2) صورة الأرض لابن حَوْقل 395، ومعجم البلدان (الطاهرية) 4/ 9. وذكر الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 2/ 696-697 أن أول عَمَالة بلاد خوارزم من جهة آمُل جَيحُون هي سيفايه ثم الطَّاهرية بعدها بمرحلة. ويمكن الجمع بأن سيفايه قرية أو مكان غير أهل، بخلاف الطَّاهرية فهي مدينة عامرة، لذا اقتصر الأكثر على التحديد بالطَّاهرية.

(3) معجم البلدان (الطاهرية) 4/ 9. وطاهر بن الحسين كان والياً للعباسيين على خراسان وما يتبعها.

(4) صورة الأرض 425، ونزهة المشتاق 2/ 696، ومسالك الأبصار 2/ 79. كما ينظر نزهة المشتاق 2/ 698.

(5) الأنساب 13/ 409، ومعجم البلدان (هَزَاراسب) 5/ 464-465، وآثار البلاد وأخبار العباد 567.

(6) صورة الأرض 395، وأحسن التقاسيم 49، 286، 288، ونزهة المشتاق 2/ 697، ومسالك الأبصار 2/ 80.

(7) معجم البلدان (كُرْدَر) 4/ 510.

جهة خيوة⁽¹⁾.

مزداخقان: ناحية شرقي النهر، كبيرة وحصينة جداً، تقارب الجرجانية في الرقعة، وحوها اثنا عشر ألف حصن.

عوشفنج: مدينة⁽²⁾.

مراغوذ: ناحية تشتمل على بعض القرى⁽³⁾، ويبدو أنها من نواحي كا⁽⁴⁾.

المطلب الثاني: بلدات خوارزم وقراها وسواها

تقدمت الإشارة إلى كثرة مدن خوارزم، ومن الطبيعي بعدها الحديث عن كثرة البلدات فضلاً عن القرى، قال محمد بن أبي طالب المعروف بشيخ الرتبة: «ويقال: إن عمل خوارزم يشتمل على ستين ألف قرية»⁽⁵⁾. ودونك تسمية ما وقفت عليه من بلدات وقرى ونحوها، مع التعريف إن تيسر:

برقان: بفتح أوله وقيل بالكسر، قرية من أعمال مدينة كا، تقع على شطّ جيحون الشرقي، وكانت قد خربت بطغيان النهر، وصارت مزرعة⁽⁶⁾.

زخشر: بليدة في الجهة الغربية من النهر، لم يبق منها إلا أسوارها المتصدعة⁽⁷⁾، وتقع اليوم في الجنوب الغربي من ولاية داشوغز بتركمانستان، وتسمى إزخشر. قال ابن خلكان: «وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم»⁽⁸⁾، وكتب أبو القاسم الزخشري في جواب للحافظ السلفي: «وأما

(1) صورة الأرض 396، 425، وأحسن التقاسيم 49، 287، ومعجم البلدان (أزخشميّن) 1/ 170، (خشميّن) 2/ 427، (ساوكان) 3/ 201. وتنظر رسالة ابن فضلان 68، 77.

(2) معجم البلدان (عوشفنج) 4/ 248.

(3) الأنساب 10/ 39. وينظر معجم البلدان (غزنيّز) 4/ 228.

(4) الأنساب 10/ 39.

(5) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر 223.

(6) الأنساب 2/ 168، ومعجم البلدان (برقان) 1/ 460.

(7) رأيها بهذه الصورة لما زرتها.

(8) وفیات الأعيان 5/ 174.

المولد فقريّة مجهولة من قرى خوارزم، تسمى زَحْشَر⁽¹⁾.

ولما اتسعت كُرْكَانَج (الجرجانية) صارت زَحْشَر منها، قال جمال الدين القفطي: «كان الزَحْشَرِيّ رحمه الله من أهل خوارزم، وزَحْشَر إحدى قراها القريبة منها، وسمعت بعض التجار يقول: إنها قد دخلت في جملة المدينة، وإن العمارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها، فصارت من جملة محالّها»⁽²⁾.

نُوزَكَات: بليدة، وكأن معناها: كاث الجديدة، فتكون القديمة هي كاث السابقة⁽³⁾. ويوجد في الخرائط الجغرافية الحديثة شمالي جِيْحُون على شطه الشرقي، في دولة أوزباكستان، مدينة تسمى (نوكوث)، وتقع مقابل كُونِيرْكَانَج، فلربما كانت (نُوزَكَات).

بَيْرُون: من رُستاق خوارزم وسَوَادِهَا، وفي دولة أوزباكستان اليوم مدينة بهذا الاسم، تقع شرقي النهر، وهي غربي هَرَارَسَب وشمالي أوركنج⁽⁴⁾.

براتقين: وتنطق أيضاً (قراتكين) و(براتكين)، قرية من نواحي كَرْدَر شمالي خوارزم، تقع في الجهة الشرقية من النهر⁽⁵⁾.

مذمينية: بلدة شرقي النهر في الشمال الأقصى من خوارزم⁽⁶⁾.

عَزْمِينَة: بلدة⁽⁷⁾.

(1) المصدر السابق 5/ 171.

(2) إنباه الرواة 3/ 265. وما ذكره بعض التجار هو في القديم وليس الآن.

(3) معجم البلدان (نُوزَكَات) 5/ 358.

(4) الأنساب 2/ 392، ومعجم الأدباء 5/ 2330-2331.

(5) صورة الأرض 395، وأحسن التقاسيم 49، 286، ونزهة المشتاق 2/ 697، وسير أعلام النبلاء 23/ 112. وقول الذهبي في تاريخ الإسلام 14/ 424: «وبراتقين قَصْبَة من قَصَبَات كَرْدَر من أعمال جرجانية خوارزم» غير دقيق فيما يبدو، فبراتقين قرية وليست قَصْبَة، كما أستبعد أن تكون من أعمال جرجانية خوارزم الواقعة غربي النهر.

(6) صورة الأرض 396، وأحسن التقاسيم 49، 286.

(7) قال الذهبي في تاريخ الإسلام 14/ 901: «وعزمنية من قَصَبَات خوارزم» فقله: (من قَصَبَات)، فيه مبالغة.

سَدُور: بلدة شرقي النهر كما ذكر البشاري⁽¹⁾، وما زالت بهذا الاسم في تركمانستان، وهي واقعة شرقي إحدى الشعب الكبيرة للنهر، لكنها غربي المجرى الرئيس، وهي بين دَرغان وهَزَاراسب.

جقربند: بلدة غربي النهر، تقع اليوم في تركمانستان، وما زالت باسمها، وهي بين دَرغان وسَدُور.

كيث: قرية شمالي خُوارزم، وبعدها المفازة⁽²⁾.

ساوكان: بليدة غربي النهر، تقع بين هَزَاراسب وخُشميشن⁽³⁾.

كَردَران خاس: وتنطق أيضاً (كردران خواش)، قرية غربي النهر⁽⁴⁾.

سُبُرَنِي: بليدة، وهي آخر حدود خُوارزم من ناحية شَهَرَسْتان خراسان التي هي قرب نَسَا⁽⁵⁾. سَرَقُسْطَة: بليدة⁽⁶⁾.

عَزِينِيز: قرية من ناحية مراغوذ⁽⁷⁾.

غارامخشه: قرية بين الطَّاهَرِيَّة وهَزَاراسب⁽⁸⁾.

(1) أحسن التقاسيم 49.

(2) صورة الأرض 396.

(3) الأنساب 3/ 445، 7/ 37، ومعجم البلدان (ساوكان) 3/ 201. وساوكان بسكون الواو عند أبي سعد السَّمْعَانِي، وفتحها ياقوت.

(4) صورة الأرض 396، وأحسن التقاسيم 49، 287، وطبقات الشافعية الكبرى 6/ 86.

(5) معجم البلدان (سُبُرَنِي) 3/ 207، (شَهَرَسْتان) 3/ 427. ويبدو أنها سُوبرِنِي التي أفردتها ياقوت في معجم البلدان 3/ 315 عن الأولى، والتي ذكرها عز الدين بن الأثير في الكامل في التاريخ 9/ 372.

(6) معجم البلدان (سَرَقُسْطَة) 3/ 241. فهي باسم سَرَقُسْطَة الأندلسية.

(7) الأنساب 10/ 39. وقد كتبها ياقوت وضبطها في معجم البلدان 4/ 228: عَزِينِيز، وقال: «من قرى خُوارزم، من ناحية مراغرد».

(8) صورة الأرض 395-396.

- تُمرتاش: قرية⁽¹⁾.
 خاص: قرية⁽²⁾.
 نُوباغ: قرية⁽³⁾.
 باف: قرية⁽⁴⁾.
 خَرُور: قرية غربي النهر، بنواحي ساوكان⁽⁵⁾.
 مدرى كاث: قرية⁽⁶⁾.
 فَرَيْفَتان: قرية جهة مدرى كاث⁽⁷⁾.
 إِش: قرية⁽⁸⁾.
 رُوذان: تنطق بالذال وبالذال، قرية⁽⁹⁾.
 المباركة: قرية⁽¹⁰⁾.
 مذانة: قرية⁽¹¹⁾.

(1) معجم البلدان (تُمرتاش) 2 / 53-54.

(2) الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية 4 / 186، وكشف القناع المُرني عن مهمات الأسامي والكنى لبدر الدين العيّني 450. وفي أحسن التقاسيم 343 ذُكر لخاس بالسين، فلعلها خاص هذه. والله أعلم.

(3) معجم البلدان (نُوباغ) 5 / 354.

(4) الأنساب 2 / 48، ومعجم البلدان (باف) 1 / 388.

(5) الأنساب 5 / 105، ومعجم البلدان (خَرُور) 2 / 415.

(6) الأنساب 10 / 200.

(7) المصدر السابق 10 / 199-200، ومعجم البلدان (فَرَيْفَتان) 4 / 292.

(8) معجم البلدان (إِش) 1 / 234.

(9) المنتخب من معجم شيوخ أبي سعد السّمعاني 2 / 775، ومعجم البلدان (رُوذان) 3 / 88.

(10) معجم البلدان (المباركة) 5 / 60.

(11) معجم الأدباء 4 / 1820.

سيفايه: لعلها قرية، وهي أول عمالة بلاد خوارزم من جهة آمل جيحون قبل الطاهرية⁽¹⁾.

المطلب الثالث: المواضع والقلاع والمحال وما لم يتعين كونه قرية أو مدينة

الفير: قلعة واسعة حصينة على طرف مدينة خوارزم، بُنيت فوقها قصور الملوك قدماء، فحطّمها جيحون شيئاً فشيئاً حتى لم يبق لها أثر⁽²⁾. ولعلها (فيل) التي سبق الحديث عنها عند الكلام عن مدينة كاث.

السَّيْب: موضع أو جزيرة بخوارزم في ناحيتها السفلى (أي الشمالية)⁽³⁾. الميدان: محلة⁽⁴⁾.

ومن مدن وقرى خوارزم شرقي النهر: غردمان، ووايخان، وأردخيوه، ونوكفاغ، وجشيرة، وزردوخ.

وأما غربي النهر -وأكثر نواحي خوارزم في هذا الجانب- فمن تلك المدن والقرى والمنازل: نوزوار، وروزوند، وزارمند، ودسكاخان، ومداميشن، وجاز، وزمجان، وجيت، وسدفر، ومساسان، وكاردار، وأندرستان⁽⁵⁾.

ومن قرى خوارزم وبلداتها ومحالها أيضاً: خشراخان⁽⁶⁾، وأردكو⁽⁷⁾، وفاغات⁽⁸⁾.

(1) نزهة المشتاق 2/ 696-697.

(2) الآثار الباقية عن القرون الخالية 35.

(3) معجم البلدان (السَّيْب) 3/ 333.

(4) معجم البلدان (ميدان) 5/ 280.

(5) رسالة ابن فضلان 89، وصورة الأرض 396، 425، وأحسن التقاسيم 49، 286-287، 288، 343، ونزهة المشتاق 2/ 696، ومعجم البلدان (كاث) 4/ 484.

(6) طبقات الشافعية الكبرى 4/ 94، 118. وخشراخان من أعمال كاث فيما يبدو.

(7) رسالة ابن فضلان 82.

(8) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 8/ 279. ويُذكر أن (فاغ) قرية بِسَمَرْقَنْد، والذي ذكر السخاوي (فاغات) في ترجمته هو خوارزمي المولد لكنه سَمَرْقَنْدي المسكن، فلا أدري إن كان قد وقع وهم في كلام السخاوي أم لا.

ومما يحسن إلحاقه هنا تسمية الأسواق والمقابر العامة، لأنها محال من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأسواق لا تخلو من شيء من العلم، لاسيما وأن الكثير من العلماء كانوا أصحاب حِرَف وتجارات، والمقابر آخر منازل العلماء في هذه الدنيا.

فأما الأسواق فلم أَعثر إلا على اسم سوق واحد من أسواق خوارزم، وهو سوق العُشّاق، قال جمال الدين القفطي في ترجمة طلحة بن محمد بن النعماني: «ودخل خوارزم، وكان يوماً يمشي في سوق العُشّاق، فاستقبلته عجلة عليها حمار ميّت يحمله الدبّاغون إلى الصحراء لسلخه»⁽¹⁾. وفي هذا السوق جرت بعض المساجلات العلمية والأدبية، قال ابن نُقطة: «ورأيت بخط أبي الخطاب العليمي: أنشدنا أبو عاصم صاعد بن منصور بن كحير بن علي بن محمد بن أبي المحاسن الخوارزمي الفقيه إملاء لنفسه بسوق العُشّاق بجرجانية خوارزم...»⁽²⁾.

وأما المقابر العامة: فالمعلومات عنها قليلة جداً، ومن أهم الأسباب في ذلك فقدان كتب تواريخ خوارزم، ومما وقفت على اسمه من مقابر عامة هناك:

- مقبرة الغرباء باب خراسان: دفن فيها أبو الفضل محمد بن علي المروزي الكاخي⁽³⁾.
- ومقبرة الكعبية بخشراخان: دفن فيها أبو عبدالله محمد بن أحمد العقيلي الكعبي الكاخي⁽⁴⁾.

(1) إنباه الرواة 2 / 93-94.

(2) تكملة الإكمال 2 / 438-439.

(3) الأنساب 3 / 1543-1544.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 4 / 93-94.

المبحث الثاني

الحركة العلمية والحديثية

في خوارزم وتنشيط الحكام لها

المطلب الأول: علوم الخوارزميين والرحلة إليهم

شارك الكثير من الخوارزميين بعلم الحديث، لكن هذا العلم لم ينهض بالكثير منهم ليلبغوا درجة المحدث الكامل، فضلاً عن الحافظ، مع وجود قلة من حفاظ الحديث فيهم.

والعلوم التي شاعت في تلك الديار هي: الكلام والفقه والأصول والتفسير، من علوم الشريعة ومتعلقاتها، وكذلك اللغة والنحو والأدب والشعر، من علوم العربية وآدابها، وعُرف الإقليم أيضاً بالفلسفة، والعلوم العقلية عندهم أوسع حالاً من العلوم النقلية، كما يوجد في الخوارزميين المقرئ والنسابة والمؤرخ والجغرافي والفلكي والرياضي والطبيب والكيميائي والمهندس.

وقد أسهم حكام هذا الإقليم من سلاطين وملوك وأمراء ووزراء وكبراء في تقوية الحركة العلمية، بالانتساب إلى العلم، وإكرام أهله، وتشجيع دورهم، فرحل إليهم العلماء من الجهات، لكن الرحلة الحديثية لم تبلغ ما بلغته علوم أخرى كالفقه والأدب، إذ لم يُعرف أكثر أئمة الحديث الكبار بالرحلة إلى خوارزم، ولا أقصد هنا من كان بعيداً كأهل الشام والعراق، بل أعني من كان من النواحي المحيطة بها أو الأقرب إليها، كأهل بخارى وترمز ومرو ونسا ونيسابور وجرجان، ومن بعد مثل بُست وأصبهان وقزوين.

فأصحاب الكتب الستة -سوى البخاري- لم أجد لهم رحلة إلى إقليم خوارزم، وكذلك إسحاق بن راهويه، وهو مروزي، ومحمد بن يحيى الذهلي وابن خزيمة وأبو عبدالله الحاكم، وثلاثتهم من نيسابور، وأبو الشيخ ومحمد بن إسحاق بن منده، وكلاهما من أصبهان، مع كثرة رحلات الأخير، وابن عدي وأبو بكر الإسماعيلي، وهما من جرجان، وابن حبان وأبو سليمان الخطّابي، وكلاهما من بُست، وأبو يعلى الخليلي، وهو من قزوين، وغيرهم.

وأما البخاري فقد مرّ بخوارزم فنزل على عبدالله بن أبي الخوارزمي الحافظ وروى عنه، قال

الذهبي: «وقد روى البخاري عن ابن أبيّ في كتاب الضعفاء أحاديث رواية وتعليقاً، فإنه مرّ بخوارزم، فنزل على هذا الرجل، فقول البخاري في الصحيح: حدثنا عبدالله، حدثنا سليمان بن عبدالرحمن.. فذكر حديثاً، فهو عبدالله بن أبيّ»⁽¹⁾.

المطلب الثاني: صلة ملوك خوارزم وكبرائها بالحديث وغيره من العلوم

أدرك كثير من ملوك الشرق وأمرائه مكانة العلم وذويه، فرغبوا في المشاركة فيه، والانتساب إلى أهله ومجالسة حامله، حتى يحققوا لأنفسهم ذاك الشرف العظيم، لكنهم لم يعتنوا في الحديث عنايتهم ببعض العلوم الأخرى، وإليك شيئاً من خبرهم في ذلك:

فقد كان صاحب الدولة الغزنوية السلطان العادل محمود بن سُبُكْتِكِين فاتح بلاد الهند والضمّ خوارزم إلى ملكه عالماً، له اعتناء كبير بالعلوم الشرعية، وبخاصة الحديث، وصُنِّفَتْ له كتب كثيرة، وقصده العلماء من أصقاع الأرض.

كذلك صاحب الدولة السَلْجُوقِيَّة السلطان محمود بن محمد بن مَلِكْشاه كان غزير العلم، لاسيما في التاريخ والسِّيَر والنَّحو.

وكان السلطان خوارزم شاه علاء الدين تِكِش بن أَرْسَلان بن أَتِسْز بن محمد بن أُنُوشْتِكِين - الذي أزال دولة السلاجقة-، صاحب آداب ومعرفة بمذهب الإمام أبي حنيفة وبالأصول⁽²⁾، ووُصِفَ جدّه خوارزم شاه أَتِسْز بالعالم⁽³⁾.

كما كان ابنه وخليفته من بعده السلطان خوارزم شاه قطب الدين وعلاء الدين محمد بن تِكِش -وهو الذي لحقه التتار في بلاد خراسان-، صاحب معرفة ومشاركة في العلم، عالماً بالفقه والأصول وغيرهما، وعُرف بكثرة مجالسة العلماء وسماع مناظراتهم، وصحب قبل الملوك فخر الدين الرازي⁽⁴⁾.

(1) سير أعلام النبلاء 13 / 503.

(2) تاريخ الإسلام 12 / 1070، والجواهر المضيّة 1 / 473.

(3) تاريخ بيهق 235.

(4) تاريخ الإسلام 13 / 516، 517.

ولم يقتصر هذا الحرص على السلاطين والملوك، بل تعداه إلى الأمراء والوزراء، إذ أبلوا فيه بلاءً حسناً:

ففي عهد الأسرة المأمونية كان وزيرهم أبو الحسين أحمد بن محمد الخوارزمي السهلي أديباً محباً للعلوم، صنّف وصنّف له⁽¹⁾.

وفي الدولة السلجوقية كان أول وزرائها عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور بن محمد الكندري وزير السلطان طغرل بك متفهماً على مذهب أبي حنيفة، وكان متكلماً، وكاتباً بارعاً، وقد تولّى خوارزم لطغرل بك قبل الوزارة⁽²⁾.

كما أن الأمير خوارزم شاه محمد بن أئوشتيكين والي خوارزم من قبل السلاجقة كان عالماً، له مشاركة في التفسير⁽³⁾.

وفي الدولة الخوارزمية لمع في العلم شهاب الدين أبو سعد بن عمران الخيوقي مستشار السلطان خوارزم شاه علاء الدين محمد ومقدم دولته، فكان فقيهاً مفتياً، عارفاً باللغة والطب، وكثير من العلوم.

كما عُرف نظام الملك مسعود بن علي الشافعي وزير السلطان خوارزم شاه علاء الدين تكش بالفقه والعلم، ونظام الملك هذا غير نظام الملك أبي علي الطوسي الشهير، وزير السلاجقة وصاحب المدارس النظامية الكثيرة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ولاية خوارزم قبل الدول المستقلة كان منهم من يوسم بالعلم، ففي الدولة العباسية وليّ أمير خراسان وما يليها عبدالله بن طاهر بن الحسين ابن أخيه منصور بن طلحة بن طاهر إمرة مرو وما يتبعها حينئذ كخوارزم نيابة عنه، وكان منصور عالماً أديباً شاعراً،

(1) معجم الأدباء 2/ 504-505، وتاريخ الإسلام 9/ 440.

(2) وفیات الأعيان 5/ 138، 142، وتاريخ الإسلام 10/ 85. وقد خلف عميد الملك الكندري في الوزارة للسلاجقة وزير ألب أرسلان وملكشاه: نظام الملك أبو علي الحسن بن علي الطوسي، الذي كان من أعظم وزراء الدنيا علماً وديناً، حفظ القرآن الكريم، وطلب الفقه وبرع فيه، وأتقن العربية، وأكثر من سماع الحديث وإملائه.

(3) سير أعلام النبلاء 19/ 529.

روى الحديث، كما أنه خاض غمار الفلسفة وصنّف فيها. وأما عمه الذي أنابه عنه على تلك النواحي فقد روى الحديث، وتفقهه، وكان أديباً شاعراً مترسلاً⁽¹⁾.

ولم يكتف هؤلاء الملوك والأمراء والوزراء بالمشاركة العلمية، بل كان لهم أثر مشهود في تشجيع العلماء وإكرامهم:

فقد عُرف بذلك محمود بن سُبُكْتِكِين صاحب الدولة الغزنوية، وابنه السلطان مسعود. واشتهر به أيضاً ملوك خوارزم من الأسرة المأمونية، كمأمون بن محمد بن علي بن مأمون. وبعض وزرائهم كأبي الحسين السَّهْلِي. كما عُرف به سلاطين السلاجقة.

ومثلهم علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تِكش صاحب الدولة الخوارزمية، الذي اشتهر بتعظيمه للعلماء وحبّه لهم وإحسانه إليهم، ومن قبله والده هذه الأسرة الأمير محمد بن أنوشْتِكِين الذي كان والياً للسلاجقة، فقد عُرف بإجلال أهل العلم وإكرامهم، وكذلك ابنه أَتَسِز⁽²⁾.

المطلب الثالث: إقامة ملوك خوارزم وكبرائها لدور العلم وغيرها من المنشآت

اهتم ملوك خوارزم وأمرؤها وأعيانها بتشييد المدارس وإنشاء المكتبات وإقامة دور العلم، سواء أكان داخل خوارزم أو خارجها. ومن ذلك: بناء السلطان خوارزم شاه علاء الدين تِكش بن أَرْسلان صاحب الدولة الخوارزمية مدرسة عظيمة للحنفية في خوارزم⁽³⁾، وجعل فيها داراً للكتب. وبنى ابنه السلطان قطب الدين وعلاء الدين محمد مدرسة لفخر الدين الرازي بخوارزم، كان يدرّس فيها العلوم⁽⁴⁾.

(1) الفهرست للنديم 1/ 362-363، وتاريخ الإسلام 5/ 601، 6/ 216-217.

(2) الكامل في التاريخ 8/ 411، وتاريخ الإسلام 10/ 485، 13/ 516.

(3) تاريخ الإسلام 12/ 1070. وذكر الذهبي أنه دُفن في هذه المدرسة.

(4) وفيات الأعيان 4/ 251.

كما بنى آخر السلاطين الخوارزمية جلال الدين منكبرتي مدرسة كبيرة، لكنها كانت بأصبهان. وثمة مدرسة بناها ببغداد أحد ملوك خوارزم من الأسرة المأمونية، قال الذهبي في ترجمة أبي الحسين بن اللبان الفقيه المحدث: «قال ابن أرسلان: دخل ابن اللبان خوارزم في أيام أبي العباس مأمون بن محمد بن علي بن مأمون خوارزم شاه، فأكرمه وبرّه وبالغ، وأمر فبنى باسمه مدرسة ببغداد نزل فيها فقهاء خوارزم، وكان هو يدرّس بها، وخوارزم شاه يبعث إليه كل سنة بهال. ثم قال: أنا رأيت هذه المدرسة وقد خربت»⁽¹⁾.

وأما الوزراء والأعيان: فقد بنى نظام الملوك مسعود بن علي الشافعي الوزير مدرسة عظيمة للشافعية بخوارزم⁽²⁾، وجعل فيها دار كتب حافلة. ولهذا الوزير آثار حسنة أخرى من مساجد ومدارس في خوارزم وغيرها.

كما أنشأ شهاب الدين أبو سعد بن عمران الحيوقي، داراً عظيمة للكتب في خوارزم، قال الشهاب محمد بن أحمد النسوي: «وقد بنى شهاب الدين بخوارزم في جامع الشافعية دار كتب، لم يُر قبلها ولا بعدها مثُلها»⁽³⁾. وكان شهاب الدين يدرّس في عدة مدارس بخوارزم، قال الشهاب النسوي أيضاً: «وكان إليه تدريس خمس مدارس بخوارزم»⁽⁴⁾.

ومن أقام مدارس أيضاً بخوارزم وغيرها: قاضي القضاة بخوارزم وعاملها أبو عمرو محمد بن عبدالرحمن بن أحمد النسوي⁽⁵⁾.

وأشير هنا إلى أن رشيد الدين الوطواط كاتب الإنشاء لأحد ملوك خوارزم، لما أغار سلطانه

(1) تاريخ الإسلام 49/9. وعلق الدكتور بشار عوّد على كلام ابن أرسلان بقوله: «وهذا النص في غاية الأهمية وإن لم يذكره الخطيب في تاريخه، ومعناه وجود مدرسة ببغداد أو مدارس، قبل النظامية ومدرسة أبي حنيفة اللتين أنشئتا في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس، والمعروف أنهما أول المدارس المقامة في العالم الإسلامي».

(2) تاريخ الإسلام 1091/12. وذكر أن الملاحدة قتلت هذا الوزير سنة 596هـ.

(3) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي 110. ولعل المراد بجامع الشافعية ذاك الذي بناه نظام الملوك مسعود.

(4) المصدر السابق 109.

(5) تاريخ الإسلام 308/10، وطبقات الشافعية الكبرى 4/175.

على مَرُو كان بصحبته، فدخل الرشيد مكتبة المدرسة الخاثونية، واستصفى من محاسن كتبها جملة كبيرة نقلها إلى خوارزم⁽¹⁾.

ومن رجالات خوارزم الذين كانت لهم عناية كبيرة بإقامة المدارس وإنشاء المكتبات وغيرها من مراكز العلم في عهد السلاجقة: شرف المُلْك أبو سعد المُستوفي، بنى مدرسة كبيرة للحنفية ببغداد، ومدرسة بمَرُو ضم إليها خزانة كتب حافلة، وأستبعد أن لا يكون له شيء من ذلك في بلده خوارزم.

وبعد تخريب التتار لخوارزم بمدة من الزمن عادت إليها بعض الحياة، وبنى أمير خوارزم وخراسان قُطْلُوذْمُور من قبل السلطان محمد أوزبك خان مدرسة كبيرة بخوارزم، زارها ابن بطُّوطَة، كما أشار إلى مدرسة أخرى هناك⁽²⁾.

وكانت خوارزم تشتمل على آلاف كثيرة من المساجد، فقَصَبَتها القديمة (منصورة) يحكي ابن أَرْسَلان في مقدمة تاريخه لخوارزم أنها كانت مملوءة بالمساجد وغيرها من المنشآت، قال: «وسمعت عدة من المشايخ يقولون: كان بمنصورة اثنا عشر ألف مسجد، فإن فيها اثني عشر ألف سَكَّة، في كل سَكَّة مسجد، وفيها ألف ومِئتا حَمَام»⁽³⁾. ولا يخفى ما للمساجد من أثر كبير في النهضة العلمية، فهي دُور للعبادة والعلم معاً.

وذكر ظهير الدين البيهقي أن وزير خوارزم تاج الدولة أبا القاسم أحمد بن عبدالله البيهقي بنى فيها جامعاً وعمارات وآثارات كثيرة، وأنه بنى من مال غز خوارزم بهواً في جامع القَصْبة أمام القبلة⁽⁴⁾.

هذا، ولم أعر على أية إشارة تُشعر بوجود دار للحديث أو مدرسة مختصة بالمحدثين بخوارزم.

(1) معجم الأدباء 3 / 62.

(2) رحلة ابن بطُّوطَة 3 / 9، 11.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 7 / 290.

(4) تاريخ بيهقي 477.

المبحث الثالث

مذاهب الخوارجيين وطوائعهم

وأثر ذلك على النشاط الحديثي

المطلب الأول: مذاهب الخوارجيين وأثرها في الحركة الحديثية

لا شك أن للمذهب أثراً في قوة الحركة الحديثية وضعفها، واتساع شأن الرواية وضيقتها. ففي الأصول (الاعتقاد) اشتهر عن أهل خوارج مذهب الاعتزال، بل كانت خوارج كعبة معتزلة الشرق، وأهل هذا المذهب يحرصون على تقديم العقل على النقل، والرأي على الرواية، مع التعنت في قبول الأخبار.

وكما يضيّق الاعتزال وما شابهه باب الرواية، فإنه يُكدّر العلوم الأخرى، قال الذهبي: «لكن القرآن⁽¹⁾، وفروع الفقه، موجود كثير شرقاً وغرباً، لكن ذلك مُكدّر في المشرق وغيره بعلوم الأوائل وآراء المتكلمين والمعتزلة، فالأمر لله تعالى»⁽²⁾.

وقد تظاهرت الدلائل على انتشار مذهب الاعتزال في خوارج، قال الحافظ عبد القادر الرهاوي في شيخه إمام همدان أبي العلاء الحسن بن أحمد العطار: «واستحسن تصانيفه في القرآن، وكُتبت، ونُقلت إلى خوارج والشام... وسمعت شيخنا أبا الفضل بن بُنيان الأديب بهمدان يقول... تألفت القلوب على محبته وحسن الذكر له في الآفاق البعيدة، حتى أهل خوارج الذين هم من أشد الناس في الاعتزال كتبوا تصانيفه، وصار له عندهم من الصيت لعل قريباً من همدان، مع مباينتهم له في الاعتقاد، ومعرفتهم شدته في الحنبلية»⁽³⁾.

وقال ياقوت في ترجمة صدر الأفاضل أبي الفضل القاسم بن الحسين الخوارزمي: «وحضرتُ

(1) أي علومه.

(2) الأمصار ذوات الآثار 235.

(3) تاريخ الإسلام 404/12-405. وتوفي أبو العلاء بن العطار سنة 569هـ، وكان إماماً في القراءات وعلوم القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب.

في منزله بخوارزم...وقلت له: ما مذهبك؟، فقال: حنفي، ولكن لست خوارزمياً، لست خوارزمياً -يكررها-، إنما اشتغلت ببخارى فأرى رأي أهلها. نفى عن نفسه أن يكون معتزلياً، ⁽¹⁾».

ومن أجلاء الخوارزميين الذين تبرؤوا من الاعتزال وغيره من المذاهب المخالفة لاعتقاد أهل السنة أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي ثم البغدادي شيخ الحنفية وفتيهم مع اعتناء بالحديث، قال: «ديننا دين العجائز، ولسنا من الكلام في شيء» ⁽²⁾.

ومن هؤلاء الأجلاء أيضاً الذين انتهجوا نهج أهل السنة وخالفوا الشائع في إقليمهم نجم الدين الكُبرى ⁽³⁾.

وكان عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور بن محمد الكُنْدُري والي خوارزم للسلاجقة، معتزلياً متكلماً ⁽⁴⁾.

ومشهور أن أبا القاسم الخوارزمي الزَّحَّشَري صاحب الكَشَّاف كان على مذهب أهل الاعتزال ⁽⁵⁾، بل إنه جعل هذا المذهب عنوان فضائل خوارزم، إذ قال معلقاً على ما طرّزه ابن سَمَّقة الكاتب من فضائل تلك الناحية: «ولقد أحسن ابن سَمَّقة في جميع ما نمّقه، ولكنه أخلّ برأس فضائلها، وهو ما رزقته من المذهب السديد، مذهب أهل العدل والتوحيد» ⁽⁶⁾.

وتلقّى أبو القاسم الزَّحَّشَري هذا المذهب عن شيخه أبي مُضر محمود بن جرير الصَّبِّي الأصبهاني الأديب (ت 507هـ)، وذكر ياقوت ⁽⁷⁾ أن أبا مُضر هو الذي أدخل إلى خوارزم مذهب

(1) معجم الأدباء 5/ 2192.

(2) تاريخ مدينة السلام وأخبار محدّثيها وذكر قُطّانها العلماء من غير أهلها ووارديها لأبي بكر الخطيب البغدادي 4/ 405.

(3) تكملة الإكمال 2/ 64.

(4) وَفَيَات الأعيان 5/ 138، 142، وتاريخ الإسلام 10/ 85.

(5) وَفَيَات الأعيان 5/ 170.

(6) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار 1/ 291.

(7) معجم الأدباء 6/ 2685-2686.

المعتزلة ونشره بها، لكن صلاح الدين الصفدي قيّد هذا الكلام فقال: «وكانت خوارزم قبل ورود أبي مضر إليها على مذهب واحد في الاعتزال، فأدخل إليهم أبو مضر مذهب أبي الحسين البصري المعتزلي، ونشره بخوارزم»⁽¹⁾.

وكان لعامة أهل خوارزم اهتمام بعلم الكلام، وبحث فيه، قال زكريا القزويني: «وأهل جرجانية كلهم معتزلة، والغالب عليهم ممارسة علم الكلام حتى في الأسواق والدروب، يناظرون من غير تعصب بارد في علم الكلام، وإذا رأوا من أحد التعصب أنكروا عليه كلهم، وقالوا: ليس لك إلا الغلبة بالحجة، وإياك وفعل الجهال»⁽²⁾. ومما يدل على إنصافهم هذا وعقلهم، وفشو علم الكلام فيهم، ما ذكره زكريا القزويني أيضاً، قال: «وحكي أنه -يعني الإمام فخر الدين الرازي- كان يعظ على المنبر بخوارزم، وعوام خوارزم كلهم متكلمة، يبحثون بحثاً صحيحاً، وكان يأتي بمسألة مختلفة بين المعتزلة والأشاعرة، ثم يقررها تقريراً تاماً، ويقول: أئمة المعتزلة لا يقدرّون على مثل هذا التقرير!، ويقول لهم: أما هذا تقرير حسن؟!، يقولون: نعم...»⁽³⁾.

وذكر ابن فضالان قرية من قرى خوارزم تسمى أردكو، ويعرف أهلها بالكرديّة، وأنهم كانوا يتبرؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ دبر كل صلاة⁽⁴⁾.

وأما في الفروع فقد تمذهب أهل إقليم خوارزم في الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، إلا بلدة

(1) الوافي بالوفيات 25 / 257.

(2) آثار البلاد وأخبار العباد 520.

(3) آثار البلاد وأخبار العباد 378. ومع ما وصفوا به من إنصاف فإنهم لم يحتملوا بقاء فخر الدين الرازي في بلادهم فأخرجوه منها، وفيات الأعيان 4 / 250.

هذا، وبعد تخريب التّار لخوارزم بمدة طويلة، اضطرّ من تبقى من أهل تلك الناحية إلى إخفاء اعتزالهم، إذ تأمّر عليهم بعض من يُنسب إلى السنة، قال ابن بطّوطة في رحلته 3 / 11 -وقد زار خوارزم في تلك الآونة-: «والغالب على مذهبيهم الاعتزال، لكنهم لا يُظهرونه لأن السلطان أوزبك وأميرَه على هذه المدينة قُتلوا دُموّر من أهل السنة».

(4) رسالة ابن فضالان 82.

خَيَّوَه (خَيَّوَق) فأهلها شافعية⁽¹⁾، قال ياقوت فيها: «وأهلها شافعية، دون جميع بلاد خوارزم فإنهم حنفية»⁽²⁾.

المطلب الثاني: صفات أهل خوارزم وأثرها في الحركة الحديثية

اتّصف أهل هذا الإقليم بكثير من الصفات النبيلة، وقد عُرف عنهم الإنصاف، وكرههم للتعصب، وحبّهم للنظر. وفوق ذلك وُصفوا بالديانة، قال الكاتب ابن سَمَّقَة: «ولهم السّداد والديانة، وعندهم الوفاء والأمانة، وضمايرهم نقيّة طاهرة، ورغباتهم في أصناف الخير ظاهرة»⁽³⁾. وقال ياقوت: «وما أظن أنه كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في كثرة الخير... وملازمة أسباب الشرائع والدين»⁽⁴⁾.

وكانوا أيضاً أهل شجاعة وبأس في الحرب، قال ابن سَمَّقَة: «ولخوارزم فضائل لا يوجد مثلها في سائر الأقطار، وخصال محمودة لا تتفق في غيرها من الأمصار، وهي تُغر من ثغور الإسلام، قد اكتنفها أهل الشرك، وأطافت بها قبائل الترك، فغزو أهلها معهم دائم، والقتال فيما بينهم قائم... وأهلها أهل بَسالة وقلوب جريّة، ونفوس أبيّة»⁽⁵⁾، وقال عز الدين بن الأثير: «وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة»⁽⁶⁾، وقال زكريا القزويني في أهل الجرجانية قَصَبَة ذاك الإقليم: «وأهلها كلّهم أجناد، حتى البَقال والقَصّاب والحبّاز والحائك»⁽⁷⁾.

(1) تقويم البلدان للملك المؤيّد أبي الفداء 477-478.

(2) معجم البلدان (خَيَّوَق) 2 / 474.

(3) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار 1 / 290.

(4) معجم البلدان (خوارزم) 2 / 455.

(5) ربيع الأبرار 1 / 290.

(6) الكامل في التاريخ 10 / 361.

(7) آثار البلاد وأخبار العباد 519.

وكونهم في ثغر منقطع شديد البرودة⁽¹⁾ حملهم على تلك الحال من الشدة والقوة، وجعل لهم طباعاً خاصة، قال البشاري المقدسي: «وهم يخالفون أهل الجانيين - (يعني خراسان وما وراء النهر) - في الرسوم واللسان والخلُق والطَّباع»⁽²⁾، ولهذا شبَّههم بأهل سجلماسة في المغرب، قال: «واعلم أن مثل خوارزم في إقليم المشرق كسجلماسة في المغرب، وطباع خوارزم كالبربر»⁽³⁾.

كما أن طبيعة بلادهم جعلتهم بعيدين عن الترفّ، قال ياقوت: «هذا في الغالب عليهم، على أن فيهم أغنياء مترفين، إلا أن عيش أغنيائهم قريب من هذا، ليس فيه ما في عيش غيرهم من سعة النفقة»⁽⁴⁾.

وقد وُصف أهل خوارزم مع تلك الشدة والقصد بالكرم وحسن الضيافة والإحسان إلى الغرباء والضعفاء، قال البشاري فيهم: «أهل ضيافة... وبأس وشدة في الحرب»⁽⁵⁾. وقال ابن سَمَّوَة: «ودينهم محبة الأخيار، ومقت الأشرار، والإحسان إلى الغرباء، والتعطف على الضعفاء»⁽⁶⁾.

فكونهم في إقليم منقطع، شديد البرودة جداً، على ثغر يكتنفه الأعداء من عامة جهاته، حدّ من تدفّق أهل الحديث الرّحّالين إليهم، وجعلهم أصحاب طبع شديد، وهذا الطبع لا يلين عادة لعلم الحديث.

(1) ينظر عن شدّة برد هذا الإقليم رسالة ابن فضّال 83-84، ووفيات الأعيان 4/ 255، وقال ابن خلّكان في كتابه المذكور 5/ 169: «والثلج والبرّد كثيراً ما يؤثّر في الأطراف في تلك البلاد فتسقط، خصوصاً خوارزم، فإنها في غاية البرد، ولقد شاهدت خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب، فلا يستبعد من لم يعهده».

(2) أحسن التقاسيم 284.

(3) المصدر السابق 286.

(4) معجم البلدان (خوارزم) 2/ 453. وينظر عن صفات أهل خوارزم أيضاً رسالة ابن فضّال 82، وخريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء العراق) 809.

(5) أحسن التقاسيم 285.

(6) ربيع الأبرار 1/ 290.

الفصل الثاني: تواريخ خوارزم وبيوتاتها العلميّة واعتناء الخوارزميين بالتوثيق وطرائقهم في الأنساب والألقاب

تناول هذا الفصل ذكر تواريخ خوارزم الرجالية، مع التنويه ببعضها، وتعرض لتسمية البيوتات العلميّة الحديثية المشهورة في ذاك الإقليم، وألّح على اهتمام الخوارزميين بالتوثيق والضبط، وأشار إلى طريقتهم في الانتساب ومبالغتهم في الألقاب.

المبحث الأول تواريخ خوارزم الرجالية وبيوتاتها العلميّة الحديثيّة

المطلب الأول: تاريخ خوارزم لابن أرسلان

ذكر شمس الدين الذهبي في رسالته (الأمصار ذوات الآثار) الأقاليم والمدن التي وُجد فيها علم الحديث والأثر، وسمى أشهر أعلام المحدثين في كل ناحية، وعند ذكره لخوارزم قال فيها: «خوارزم بلد كبير، رأيت المجلد الأول من تاريخها لرجل معاصر لأبي القاسم بن عساكر، من ثمان مجلدات، خرج منها جماعة من العلماء، من أقدمهم الحافظ عبد الله بن أبي»⁽¹⁾.

وصاحب هذا التاريخ الكبير هو: الإمام الحافظ الفقيه المؤرخ مظهر الدين أبو محمد محمود بن محمد بن العباس بن أرسلان العبّاسي الخوارزمي (ت 568هـ).

وقد طالع الذهبي المجلد الأول من هذا التاريخ⁽²⁾، وانتقى منه، لكن هذا المنتقى فقد

(1) 222 - 223. وينظر الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي 262.

(2) تاريخ الإسلام 399 / 12.

كأصله⁽¹⁾. وأثنى التاج السُّبكي على هذا التاريخ، وتَوَّه بصاحبه، ونَبَّه إلى شيء من منهجه، فقال: «فيه دلالة على أن الرجل كان متبحراً في صناعة الحديث، يُطلق عليه الحافظ المطلق ولا حَرَج، وقد أكثر فيه من الأسانيد والفوائد والكلام على الحديث، وابتدأ بعدما ذكر أخبار خوارزم -وهي التي وسمها في كتابه: منصوره⁽²⁾ - بالمحمدين⁽³⁾».

وهذا التاريخ يشتمل على جميع علماء خوارزم، محدثين كانوا أو غير محدثين، لكن الصنعة الحديثية غالبية على الكتاب كما يدلّ كلام التاج السُّبكي، وهو لم يقف منه إلا على المجلد الأول الذي وقف عليه الذهبي، وبعض نقول الذهبي عن هذا الكتاب في الميزان تدلّ على أن مؤلفه صاحب نقد⁽⁴⁾.

واعتمد هذا التاريخ عدد كبير من الأئمة: كأبي سعد السَّمْعاني، وأبي القاسم الرَّافعي، وياقوت الحَمَوي، وابن أنجب السَّاعي، وشمس الدين الذهبي، وصلاح الدين الصَّفدي، وتاج الدين السُّبكي، وعبدالقادر القُرشي، وغيرهم⁽⁵⁾.

(1) إلا أنه بقي من الأصل ثلاث ورقات مختارة محفوظة في دار الكتب المصرية (مجاميع 183)، علّقت منها بعض الفوائد في هذا البحث.

(2) تقدم أن منصوره هي كاث التي كانت قَصَبَة خوارزم قبل كُرْكَانج (الخرجانية).

(3) طبقات الشافعية الكبرى 7/ 289-290.

(4) ميزان الاعتدال في نقد الرجال 4/ 434.

(5) ينظر المنتخب من معجم شيوخ أبي سعد السَّمْعاني 1/ 386-387، والتدوين في ذكر أهل العلم بقزوین للرافعي 1/ 189، ومعجم البلدان (شَهْرُستان) 3/ 428، ومعجم الأدباء 2/ 500 -كلاهما- لياقوت، والذُّرُّ الثَّمين في أسماء المصنِّفين لابن أنجب 1/ 57-58، وسير أعلام النبلاء 20/ 288، وتاريخ الإسلام 9/ 49، وميزان الاعتدال 4/ 434 -ثلاثتها- للذهبي، والوافي بالوفيات للصَّفدي 7/ 215، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السُّبكي 3/ 130، والجواهر المضيئة لعبدالقادر القُرشي 4/ 393. وأكثرهم نقلاً عنه ياقوت في معجم الأدباء، والسُّبكي في الطبقات.

وأشير إلى أن التاج السُّبكي في كثير من نقوله عن هذا الكتاب في تراجم الخوارزميين يقول: (قال صاحب الكافي)، ومراده تاريخ خوارزم الذي لصاحب الكافي، والكافي هو في الفقه الشافعي، وقال السُّبكي مرة 3/ 233: (وذكر =

ويُعدّ هذا التاريخ أهم التواريخ الرجالية لإقليم خوارزم، سلك فيه صاحبه سبيل المحدثين. وعدد مجلداته يدل على كثرة علماء خوارزم، وعلى ازدهار الحركة العلمية هناك، ويؤكد هذا قول شمس الدين المقدسي البشاري في أهل هذا الإقليم: «أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب»⁽¹⁾، وقول ياقوت: «فهو لعمرى بلاد طيبة، وأهلها علماء فقهاء أذكاء»⁽²⁾.

المطلب الثاني: بقية تواريخ خوارزم

ذكر ظهير الدين البيهقي كتابين في تاريخ خوارزم فقال: «تاريخ خوارزم في مجلدين ضخمين من تأليف السري بن دلويه، ومن تأليف أبي عبدالله محمد بن سعيد»⁽³⁾، فالثاني منهما هو للمؤرخ محمد بن سعيد بن سَمَقَة⁽⁴⁾ الخوارزمي (ت 369 هـ)، الذي ذكر في ترجمته بأن له كتاب أخبار خوارزم، والذي أثنى عليه صلاح الدين الصفدي بقوله: «يدل على كمال فضله»⁽⁵⁾.

ولأبي الرّيحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (ت حدود 440 هـ) كتاب المسامرة في أخبار خوارزم، ذكره ياقوت في معجم الأدباء، ونقل عنه في معجم البلدان⁽⁶⁾، وهذا الكتاب بعيد فيما يبدو عن علم الرجال.

= صاحب الكافي، في تاريخ خوارزم)، ولا يريد إلا ما ذكرته، ويدلّ عليه قوله في موضع 4/ 118: (قال صاحب الكافي، في تاريخ خوارزم... وأطال في ترجمته في تاريخ خوارزم)، وكذلك قوله في موضع آخر 4/ 175: (ذكره كلّ من... ومحمود الخوارزمي في تاريخ خوارزم)، وقال في موضع آخر 6/ 85: «سمع منه صاحب الكافي، وحديث عنه في تاريخ خوارزم»، وقال في موضع آخر 6/ 107: «أبو صاحب الكافي، أطنب ولده في وصفه في تاريخ خوارزم»، وقال في ترجمة صاحب هذا التاريخ 7/ 289: «صاحب الكافي في الفقه... له تاريخ خوارزم». لذا يُخطئ من يُسمّي كتاب ابن أرسّان بالكافي في تاريخ خوارزم، فهما كتابان للرجل كما عرفت.

(1) أحسن التقاسيم 284. وينظر فيه 287.

(2) معجم البلدان (خوارزم) 2/ 455.

(3) تاريخ بيهقي 115.

(4) بتشديد الميم، ومنهم من يُخفّفها، الوافي بالوفيات 3/ 105.

(5) المصدر السابق 3/ 105.

(6) معجم الأدباء 5/ 2333، ومعجم البلدان (خوارزم) 2/ 454.

ومن جمع تاريخ خوارزم: أبو علي الحسن بن المظفر التيسابوري الأصل الخوارزمي (ت 442هـ)، وسُمي هذا الكتاب (زيادات أخبار خوارزم)⁽¹⁾، واسمه يشير إلى أنه أُلّف على كتاب سبقه، وكأنه كتاب ابن سَمَّقة السابق.

ويُشبه أن يكون كتاب ابن سَمَّقة وكتاب ابن المظفر قد اشتملا على ذكر علماء خوارزم، لأن كلمة (الزيادات) في الثاني قد يرشح منها ذلك، وأما الأول فإن قول الصّفي في صاحبه: «حدّث في كتابه عن إبراهيم بن همدان وأحمد بن محمد بن العباس وأبي عمرو عامر بن محمد بن محمد بن الشاه بن إسحاق وغيرهم»⁽²⁾، يُلمع إلى اهتمام الرجل بالروايات وأصحابها، والله أعلم. وثمة كتاب آخر في تاريخ خوارزم سَمي الصّفي والسّخاوي مؤلفه⁽³⁾.

المطلب الثالث: الأسر العلمية الحديثية بخوارزم

تعددت الأسر العلمية بخوارزم، فتوارثت العلم كابراً عن كابر، والعلم خير ميراث، ومن تلك الأسر التي كان لبعض أفرادها اعتناء بعلم الحديث:

بيت أبي القاضي: قال تاج الدين السبكي: «وبيت أبي القاضي بخوارزم بيت شهير... قال صاحب الكافي... وآل أبي القاضي أعز بيت وأشرفه بخوارزم، وأجمع لخصال الخير»⁽⁴⁾.

بيت أرسلان: قال تاج الدين السبكي في ترجمة محمود بن محمد بن العباس بن أرسلان صاحب تاريخ خوارزم: «سمع أباه وجدّه العباس بن أرسلان... قال ابن السمعاني... وبنيته بيت

(1) معجم الأدباء 3/ 1016.

(2) الوافي بالوفيات 3/ 105.

(3) اسمه كما في مقدمة الوافي بالوفيات 1/ 48: مطهر الدين الكاشي، وفي الإعلان بالتوبيخ 630: مطهر الدين الكاساني. ولم أقف على ترجمة الرجل حتى أثبتت من اسمه.

وزعم حاجي خليفة في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون 1/ 293 أن من تواريخ خوارزم: كتاب الكافي

لأبي أحمد محمد بن سعيد ابن القاضي ت 346هـ، وهو وهم فيما يبدو، والله أعلم.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 3/ 164.

العلم والصلاح»⁽¹⁾، ثم قال السُّبكي: «وله بخوارزم عَقِب علماء محدِّثون»⁽²⁾.
 بيت البرقي: قال أبو سعد السَّمْعاني: «نسبة إلى بَرَق، وهو بيت كبير من خوارزم، انتقلوا إلى
 بخارى وسكنوها»⁽³⁾. وكبير هذا البيت الإمام الفقيه الحنفي الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن
 محمد بن أحمد بن يوسف⁽⁴⁾.
 بيت الكعبي: قال تاج الدين السُّبكي في ترجمة محمد بن أحمد بن سعيد الكعبي: «قال صاحب
 الكافي: كان من مشاهير صدور خوارزم وفضلائها وفقهائها، وبيته بخوارزم بيت علم وديانة
 ورياسة وثروة»⁽⁵⁾.
 بيت الحمديجي: قال تاج الدين السُّبكي في ترجمة محمد بن أحمد الحمديجي: «وبيته بيت كبير...
 قال صاحب الكافي، في تاريخ خوارزم: لبيته نحو مئتين وخمسين سنة معمور بالعلماء»⁽⁶⁾.
 بيت علي الدَّرغاني: قال أبو سعد السَّمْعاني في ترجمة طاهرة بنت أبي بكر بن أبي القاسم بن
 محمد بن علي الحشّاب الدَّرغاني: «من أولاد المحدثين»⁽⁷⁾.

(1) المصدر السابق 7 / 289.

(2) المصدر السابق 7 / 290.

(3) الأنساب 2 / 173.

(4) الإكمال لابن ماكولا 1 / 483.

(5) طبقات الشافعية الكبرى 4 / 94.

(6) طبقات الشافعية الكبرى 4 / 118.

(7) المنتخب من معجم شيوخ أبي سعد السَّمْعاني 3 / 1896.

المبحث الثاني

اهتمام الخوارزميين بالتوثيق والضبط

وطرائقهم في الأنساب والألقاب

المطلب الأول: اهتمام الخوارزميين بالتوثيق والضبط

التوثيق والضبط صنعة أهل الحديث في الأصل، وقد اعتنى أئمة خوارزم باعتماد الأصول الموثقة في نقولهم وتصحيح نسخهم، لاسيما فيما اقتبسوه من نصوص حديثة وما يتعلق بها من غريب ونحوه، سواء كان ذلك في خوارزم أو خارجها، ودونك خبراً مهماً في ذلك عن علامتي خوارزم الإمامين أبي القاسم الزَّحَّشَرِي⁽¹⁾ وخليفته ناصر بن عبد السيّد المُطَرِّزي، وكلاهما من علماء الغريب، ومن له اعتناء ما بالحديث، قال جمال الدين القفطي في ترجمة العلامة أبي منصور الأزهري الهروي (ت 370 هـ) متحدّثاً عن كتابه تهذيب اللغة: «وشُهِدَ على المجلّد العشرين من تأليفه، من النسخة التي بخط المصنّف رحمه الله وكانت بمرّو عند آل السَّمعاني رحمهم الله، وذهب خبرها في وقعة التُّرك⁽²⁾ سنة سبع عشرة وست مئة-، بخط الإمام فخر خوارزم أبي القاسم محمود بن عمر الزَّحَّشَرِي ما صورته: (ظفرتُ من هذه النسخة -التي هي نسيجٌ وحدها، لكونها بخط المصنّف، وسلامة لفظها من التحريف والزّلل، الذي لا تكاد تبرأ منه يد كاتب في كتاب خفيف الحجم، وإن أحضر ذهنه، وأمدّه إتيقان، وساعده حفظ ودراية، فضلاً عن عشرين مجلّدة- بضالّتي المنشودة، فأكبت عليها إكباب الحريص، وقلّبتها بالمطالعة، وعلّقت عندي ما فيها من الأحاديث التي خلّت عنها مصنّفات أبي عبيد والقُتَيْبِي والخطّابي، والأمثال التي لم تكن في كتابي الذي سميته بالمستقصى في أمثال العرب، وكلمات كثيرة من الغريب المُشْكِل... وكتب محمود بن عمر الزَّحَّشَرِي الخوارزمي بمدينة مرّو بخطّ يده، حامداً الله ومصلّياً على خير خلقه محمد وآله، بتاريخ رجب الواقع في سنة ثلاث وخمس مئة).

(1) يُعد الزَّحَّشَرِي حجةً في الضبط عند العلماء. ينظر تكملة الإكمال 2 / 438.

(2) يعني التتار.

وكان عليه بخط المؤلف ما مثاله: (وكتب محمد بن أحمد ابن الأزهر بيده)، ثم بعد ذلك: (يقول محمد بن أحمد ابن الأزهر: قرأ عليّ سيدي أبو يعلى أدام الله له العزّ والتأييد هذا الكتاب من أوله إلى آخره، وصحّحه فأتقنه، وأسأل الله ذا المنّ والطّول أن يبارك له فيه، وأن يقيه كلّ محذور بمَنّهِ ورأفته، وكتبه بيده. وكان سيدي أبو القاسم النّحوي أدام الله سعادته حاضراً في جميع ما قرئ عليّ أو قرأه هو، وكذلك أبو يزيد القرشي. وكتبه الأزهر بيده).

وعليه أيضاً: (بلغ أبو سعيد الشاذكوني، وأبو عليّ النّصروي، وأبو الحسن القاري).

وكان عليه بخط المطرزي: (عبید الله الفقير إليه ناصر بن المطرزي: قام بمطالعة هذه النسخة بخوارزم وعارض بها نسخته عرض تصحيح وتنقيح، وذلك في شهور سنة خمس وست مئة)⁽¹⁾.

ومن أدلة اهتمام أهل خوارزم بالضبط أيضاً: ما نقله ابن نقطة في ترجمة لأحد المحدثين ضابطاً بعض الأسماء المشتبهة، وقال عقبها: «نقلته من خطّ المطهر بن سديد النوزكائي»⁽²⁾، والمطهر هذا محدّث له اعتناء بأسماء رجال الحديث.

وأما اعتناؤهم بالضبط في غير الحديث، فيشهد له قول تاج الدين السبكي في ترجمة السلطان يمين الدولة محمود بن سُبُكْتِكِين الغزنوي: «وهذا اللقب - (يعني يمين الدولة) - سُمي الكتاب اليميني الذي صنّفه أبو النصر محمد بن عبد الجبار العُتبي في سيرة هذا السلطان، وأهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب، ويضبطون ألفاظه أشدّ من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري»⁽³⁾.

المطلب الثاني: طريقة الانتساب عند الخوارزميين

أكثر النسب في تراجم علماء خوارزم ليست للقبائل والبطون، لأنّ غالب المترجمين هم من العجم، والعجم لا يتنسبون عادة إلى القبائل بخلاف العرب، قال أبو بكر الخازمي: «وأما العجم

(1) إنباه الرواة 4 / 180-181.

(2) تكملة الإكمال 4 / 161.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 5 / 315.

فإنها لا تكاد تتسبب إلى أب قديم إلا نادراً، وأكثر انتسابها إلى الأمكنة والصنائع⁽¹⁾، ثم قال: «ثم العرب شعوب وقبائل، والعجم شعوب لا غير»⁽²⁾.

وكثر عند الخوارزميين الانتساب إلى الصنائع، مع كثرة انتسابهم أيضاً إلى الأماكن، قال أبو سعد السمعاني: «وقد جرت عادة عدة من البلاد أن ينتسب أهلها إلى الحرف، مثل: خوارزم وجرجان وآمل طبرستان»⁽³⁾.

وللخوارزميين طريقة في الانتساب إلى الصنائع تختلف عن الطريقة المشهورة عند المحدثين، فالعطار والحداد -على سبيل المثال- يقولون فيه: العطار والحدادي، بإلحاق ياء الإضافة، قرر هذا أبو سعد السمعاني تحت مادة (الحلالي) فقال: «هذه النسبة إلى الحلّ، وإلحاق الياء في مثل هذا الانتساب أكثرها بجرجان وطبرستان وخوارزم»⁽⁴⁾، وذكر به تحت مادة (القصارى) فقال: «هذه النسبة إلى القصار، وهو الذي يقصر الثياب... ومثل هذا الانتساب -أعني إلى الحرف- اختص بها أهل خوارزم وآمل طبرستان»⁽⁵⁾. ثم أكد عز الدين بن الأثير عند استدراكه مادة على أبي سعد السمعاني، قال: «فاته (الغزالي): بفتح الغين والزاي المشددة وبعد الألف لام، أظن أن هذه النسبة إلى الغزال، على عادة أهل جرجان وخوارزم، كالعصاري نسبة إلى العصار، واشتهر بها الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي... وسمعت من يقول إنه بالتخفيف، نسبة إلى غزالة، قرية من طوس، وهو خلاف المشهور»⁽⁶⁾. ثم زاده تأكيداً عبدالقادر القرشي فقال: «زين المشايخ: عُرف بالبقالي، والعجم يزيدون الياء، وهو البقال، أبو الفضل محمد بن أبي القاسم بن بابجوك الخوارزمي»⁽⁷⁾. كما أن أهل خوارزم يقولون: الحجي، ويريدون: الحاج، قال أبو سعد السمعاني: «الحجي:

(1) عُجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب 4.

(2) عُجالة المبتدي 6.

(3) الأنساب 9/ 309. وينظر فيه 10/ 408-409.

(4) المصدر السابق 5/ 241.

(5) المصدر السابق 10/ 434.

(6) اللباب في تهذيب الأنساب 2/ 379. وكان ابن خلكان استفاد منه هذا في وفيات الأعيان 1/ 98.

(7) الجواهر المضية 4/ 392-393.

بكسر الحاء المهملة وكسر الجيم المشدّدة، هذه النسبة إلى الحج، وكما يقال في سائر البلاد: الحاج، يقال في خوارزم: الحَجّجي⁽¹⁾.

المطلب الثالث: مبالغة الخوارزميين في إطلاق الألقاب

بالغ متأخرو أهل الشرق لاسيما الخوارزميون في اختيار ألقاب علمائهم وتقليدهم بها، فوسموهم بالألقاب الكبيرة، التي صاروا يُعرفون بها في حياتهم، فضلاً عما بعدها، كصدر الأفاضل، وفخر المشايخ، وشمس الأئمة، وفريد العصر، ونحو ذلك.

وأما ما يُضاف إلى الدين من ألقاب، فهو عندهم كثير جداً، مع شيوعه عند عموم المشاركة: كبرهان الدين، وبدر الدين، وصدر الدين، ونظام الدين، وشمس الدين، ونجم الدين، ونحوها. وكان بعض علماء خوارزم يُقرّن له بين لقبين من الصّنفين السابقين. ولم يكن هذا كلّ من عمل المتقدمين الذين كانوا بعيدين عن التكلّف، ومتحلّين بالتواضع.

(1) الأنساب 4 / 76.

الخاتمة

تواريخ البلدان من صميم الدراسات الحديثة، وقد اعتنى بها المحدثون كل عناية، وهذا البحث اختص بجانب مهم من جوانب الكلام عن إقليم خوارزم، وهو بيان الخلفية العلمية الحديثة لهذا الإقليم إلى أوان إخضاع التتار له، ومن النتائج التي توصلت إليها فيه:

أن خوارزم إقليم مستقل عن خراسان وما وراء النهر، يقع جنوب بحر آرال، على ضفتي نهر جيحون، تعاقبت عليه دول كثيرة، منها الدولة الخوارزمية التي كانت حاضرتها كركانج (الجرجانية)، وهو مشتمل على مدن كثيرة، وقرى وفيرة، ومن أهم مدنه: قصبته كركانج (الجرجانية) - وكانت قصبته من قبل كاث (منصورة) فطغى عليها النهر وخرّبها-، وقد اجتاحت التتار خوارزم سنة 618هـ فقصوا عليها، ثم اتخذ الناس خيوة حاضرة لهم بدل الجرجانية. ومن أشهر قرى خوارزم وبلداتها: برقان، وزخشّر ومُرتاش.

وأنه لم يكن لعلم الحديث في خوارزم ما كان لعلم الكلام والفقه والأدب، إذ كانت علوم العقل واللسان عندهم غالبية على علوم النقل، لذا لم تكن الرحلة الحديثة إلى خوارزم كالرحلة إلى بخارى ومرو ونيسابور ونحوها.

وأنه كان لملوك خوارزم وكبرائها دور مهم في تشجيع الحركة العلمية، مع مشاركة لبعضهم في بعض العلوم، إلا أن علم الحديث لم يكن عندهم في الصدارة، كما أقام هؤلاء في خوارزم دوراً للعلم، ويبدو أنهم لم يقيموا فيها أي دار للحديث.

وأن من الأسباب الرئيسة في ضعف الحركة الحديثة في خوارزم أنها كانت كعبة معتزلة الشرق، ولعل من أسباب ضعف الحركة الحديثة أيضاً شدة برد هذا الإقليم، الذي كان يؤدي في بعض الأحيان إلى تساقط الأطراف.

وأن للخوارزميين طريقة في الانتساب إلى الصنائع تختلف عن الطريقة المشهورة عند المحدثين، إذ يلحقون ياء الإضافة، فيقولون في الحداد على سبيل المثال: الحدّادي، وكثير عندهم

الانتساب إلى الحرف والأماكن، كعادة العجم.

وأن أهل خوارزم وبعض من جاورهم بالغوا في اختيار ألقاب علمائهم، فوسموهم بالألقاب الكبيرة الواسعة، كصدر الأفاضل وشمس الأئمة وفخر المشايخ ونحو ذلك، ولم يكن هذا خلق المتقدمين، وبخاصة أهل الحديث.

وأن أهم التواريخ الرجالية لهذا الإقليم هو: تاريخ خوارزم لابن أرسلان (ت 568هـ)، في ثمان مجلدات، وهو مفقود، وقد وُصف بأنه دال على تبحر صاحبه في الصنعة الحديثية، والكتاب مشتمل على تراجم علماء خوارزم محدّثين كانوا أو غير محدّثين، واعتمد هذا التاريخ عدد كبير من أئمة الحديث وغيرهم.

وتعدد البيوتات العلمية المشهورة في خوارزم، ممن كان لهم اعتناء بعلم الحديث: كبيت أبي القاضي، وبيت أرسلان، وغيرهما.

واعتناء جماعة من أهل خوارزم بالتوثيق والضبط، فاعتمدوا الأصول الموثقة في نقولهم وتصحيح نسخهم، لاسيما فيما اقتبسوه من نصوص حديثية وما يتعلق بها من غريب ونحوه، مع اهتمام بضبط الأسماء المشتبهة للمحدّثين.

فهرس المصادر والمراجع

- الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الرّيحان البيروني (ت حدود 440هـ)، تحقيق كارل سَخاو، لايبزك بألمانيا، 1878م.
- آثار البلاد وأخبار العباد لذكريا القزويني (ت 682هـ)، دار صادر بيروت، 1998م.
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لشمس الدين المقدسي البشاري (ت نحو 380هـ)، دار صادر بيروت، صورة عن الطبعة الاستشرافية القديمة.
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ لشمس الدين السخاوي (ت 902هـ)، تحقيق فرانز رُوزنثال، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لُروزنثال، أشرف على نشره صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية 1403هـ/ 1983م.
- الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمؤلف في الأسماء والكنى والأنساب لأبي نصر بن ماکولا (ت 475هـ)، اعتناء عبد الرحمن بن يحيى المعلّمي اليماني، مصورة محمد أمين دمج بيروت عن نشرة مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدکن في الهند، الطبعة الثانية.
- الأمصار ذوات الآثار لشمس الدين الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق قاسم علي سعد، دار البشائر الإسلامية بيروت، الطبعة الأولى 1406هـ/ 1986م.
- إنباه الرّواة على أنباه النُّحاة لجمال الدين القفطي (ت 646هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي بالقاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية بيروت، الطبعة الأولى 1406هـ/ 1986م.
- الأنساب لأبي سعد السّمّعي (ت 562هـ)، تحقيق عبدالرحمن بن يحيى المعلّمي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدکن في الهند، الطبعة الأولى 1398هـ/ 1978م.
- البلدان لابن الفقيه الهمداني (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري)، تحقيق يوسف

- الهادي، عالم الكتب بيروت، الطبعة الأولى 1416هـ/ 1996م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي (ت748هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى 1424هـ/ 2003م.
- تاريخ بيّهق لظهير الدين علي بن زيد البيهقي (ت565هـ)، ترجمه من الفارسية وحققه يوسف الهادي، دار إقرأ بدمشق، الطبعة الأولى 1425هـ/ 2004م.
- تاريخ خوارزم (ورقات منه فقط) لمحمود بن محمد بن العباس بن أرسلان الخوارزمي (ت568هـ)، نسخة دار الكتب المصرية (مجاميع 183).
- تاريخ سيجستان لمؤلف مجهول (توفي في القرن الخامس الهجري)، ترجمه من الفارسية محمود عبد الكريم علي، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، الطبعة الأولى 2006م.
- تاريخ مدينة السلام وأخبار محدّثيها وذكر قُطّانها العلماء من غير أهلها ووارديها لأبي بكر الخطيب البغدادي (ت463هـ)، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1422هـ/ 2001م.
- التدوين في ذكر أهل العلم بقزوين لأبي القاسم الرافعي القزويني (ت623هـ)، تحقيق عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية بيروت، 1408هـ/ 1987م.
- تقويم البلدان للملك المؤيد أبي الفداء (ت732هـ)، تحقيق رينوه وديسلان، مصورة دار صادر بيروت عن طبعة باريس.
- تكملة الإكمال لابن نُقطة (ت629هـ)، تحقيق عبدالقيوم عبد رب النبي وغيره، مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، الطبعة الأولى 1408هـ/ 1987م.
- الثقات لابن حبان (ت354هـ)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن في الهند، الطبعة الأولى 1393هـ/ 1973م.
- الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية لعبدالقادر القرشي (ت775هـ)، تحقيق عبدالفتاح الحلو، مؤسسة الرسالة بيروت وهجر للطباعة والنشر بالقاهرة، الطبعة الثانية 1413هـ/ 1993م.

- جريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصهباني (ت597هـ)، تحقيق محمد بهجة الأثري وغيره، مطبعة المجمع العلمي العراقي 1375هـ/ 1955م. وتحقيق عدنان آل طعمة، طهران، 1419هـ/ 1999م. وتحقيق شكري فيصل، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1388هـ/ 1968م.
- حُورَازَم الحضارة المنسوبة لمنطقة ما بين بحري قزوين وأرال لأبجد بوهميل بروخازكا، ترجمة سيد شبايك، منظمة العواصم والمدن الإسلامية بجدة، الطبعة الأولى 1991م.
- خيوه، إعداد فيتالي ناؤومكين، ترجمة محمد وجدي محمد، المجمع الثقافي بأبو ظبي، 1424هـ/ 2003م.
- الدرّ الثمين في أسماء المصنّفين لابن أنجب السّاعي (ت674هـ)، تحقيق أحمد شوقي بنين ومحمد سعيد حنشي، الخزّانة الحسنية بالرباط، الطبعة الأولى 1428هـ/ 2007م.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر (ت852هـ)، مصورة دار إحياء التراث العربي بيروت عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن في الهند.
- الدول الإسلامية لستانلي لين بول (ت1313هـ)، مع إضافات وتصحيحات بارتولد (ت1349هـ) و خليل أدهم (ت1357هـ)، نقله من التركية إلى العربية محمد فرزات، علّق عليه محمد أحمد دهمان، مطبعة الملاح بدمشق، 1394هـ/ 1974م.
- الدولة الحُورَازَمية والمغول: غزو جنكيزخان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية لحافظ حمدي، دار الفكر العربي بالقاهرة، 1949م.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار لأبي القاسم الرّزّخّشري (ت538هـ)، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، الطبعة الأولى 1412هـ/ 1992م.
- الرّحلة (تحفة النّظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطّوطة (ت779هـ)، تحقيق عبدالهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1417هـ/ 1997م.
- رسالة ابن فضّلان (رحلته التي كانت سنة 309هـ)، تحقيق سامي الدّهّان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق.

- السلطان جلال الدين خوارزم شاه في ميزان التاريخ لمحمد دبير سياقي، ترجمه من الفارسية أحمد الخولي، المركز القومي للترجمة بالقاهرة، الطبعة الأولى 2009م.
- سير أعلام النبلاء للذهبي (ت748هـ)، تحقيق جماعة بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الحادية عشرة 1422هـ/ 2001م.
- سيرة السلطان جلال الدين منكبُرتي لشهاب الدين محمد بن أحمد بن علي النسوي (ت647هـ)، تحقيق حافظ حمدي، دار الفكر العربي بالقاهرة، 1953م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأبي العباس القلقشندي (ت821هـ)، مصورة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر عن الطبعة الأميرية.
- صورة الأرض لابن حوقل (ت380هـ)، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي (ت902هـ)، دار مكتبة الحياة بيروت.
- طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (ت771هـ)، تحقيق محمود الطنّاحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، 1388هـ/ 1968م.
- عُجالة المبتدي وفُضالة المنتهي في النسب لأبي بكر الحازمي (ت584هـ)، تحقيق عبدالله كنون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية بالقاهرة، الطبعة الثانية 1393هـ/ 1973م.
- العرب والإسلام في أوزبكستان (تاريخ آسيا الوسطى من أيام الأسر الحاكمة حتى اليوم) لبوريوي أحمدوف وزاهد الله منوروف، شركة المطبوعات بيروت، الطبعة الثانية 1999م.
- الفهرست للنديم (ت380هـ)، تحقيق أيمن فؤاد سيّد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، 1430هـ/ 2009م.
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي (ت817هـ)، اعتناء مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة السادسة 1419هـ/ 1998م.

- الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير (ت 630هـ)، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (ت 1067هـ)، اعتناء شرف الدين يالتكيا ورفعت بيلكه، مصورة دار إحياء التراث العربي بيروت عن طبعة بالأفست مأخوذة عن طبعة وكالة المعارف بإستنبول سنة 1360هـ/ 1941م.
- كَشَفُ الْقِنَاعِ الْمُرْنَى عَنْ مُهِمَّاتِ الْأَسَامِي وَالْكُنَى لبدر الدين العيني (ت 855هـ)، تحقيق أحمد محمد نمر الخطيب، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز بجُدَّة، الطبعة الأولى 1414هـ/ 1994م.
- اللُّبَابُ فِي تَهْذِيبِ الْأَنْسَابِ لعز الدين بن الأثير (ت 630هـ)، مكتبة المثنى ببغداد.
- المختصر في أخبار البشر للملك المؤيَّد أبي الفداء (ت 732هـ)، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى 1325هـ.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري (ت 749هـ)، تحقيق عبدالله السريحي وغيره، المجمع الثقافي بأبو ظبي، الطبعة الأولى 2006م.
- المسالك والممالك لابن خُرْدَاذُبَه (ت نحو 280هـ)، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.
- الْمُشْتَرِكُ وَضَعًا وَالْمُفْتَرَقُ صُقْعًا لياقوت الحَمَوِي (ت 626هـ)، عالم الكتب بيروت، الطبعة الثانية 1406هـ/ 1986م، صورة عن الطبعة الاستشرافية القديمة.
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت الحَمَوِي (ت 626هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى 1993م.
- معجم البلدان لياقوت الحَمَوِي (ت 626هـ)، تحقيق فريد الجُنْدِي، دار الكتب العلمية بيروت.
- الْمُعَرَّبُ مِنَ الْكَلَامِ الْأَعْجَمِيِّ لِأَبِي مَنْصُورِ الْجَوَالِيقِيِّ (ت 540هـ)، تحقيق ف. عبدالرحيم، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى 1410هـ/ 1990م.

- المقدمة (لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) لولي الدين بن خلدون (ت 808هـ)، دار الكتاب المصري بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت، 1420هـ / 1999م.
- المنتخب من معجم شيوخ أبي سعد السّمْعاني (ت 562هـ)، تحقيق موفق بن عبدالله بن عبدالقادر، نشرة المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، الطبعة الأولى 1417هـ / 1996م.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق علي معوّض وعادل عبد الموجود وعبدالفتاح أبو سُنّة، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1416هـ / 1995م.
- نُخبة الدهر في عجائب البر والبحر لمحمد بن أبي طالب المعروف بشيخ الرّبوة (ت 727هـ)، مكتبة المثنى ببغداد.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشرif الإدريسي (ت 560هـ)، عالم الكتب بيروت.
- نُزهة المُقلّتين في سيرة الدولتين العِلائية والجلالية وما كان فيهما من الوقائع التّاريخيّة لأبي شامة المقدسي (ت 665هـ)، اختصره وانتقاه من كتاب سيرة السلطان جلال الدين مَنكَبَرْتي لشهاب الدين النّسوي، تحقيق إبراهيم الزّبيّ، دار البشائر الإسلامية بيروت، الطبعة الأولى 1436هـ / 2015م.
- الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصّفدي (ت 764هـ)، تحقيق هلموت ريتير وديديرينغ وغيرهما، جمعية المستشرقين الألمانية، الطبعة الثانية 1411هـ / 1991م.
- وَفَيَاتُ الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتته العيان لابن خَلْكان (ت 681هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1398هـ / 1978.